لكم المجد وطوق الياسمينْ
لكم الرّاياتُ، رغم السُّحب السوداءِ
واللّيل اللّعينْ
لكم الحريةُّ الحمراءُ
والنّصر المبينْ
أعلن الفجر مخاضهْ
خرج المولودُ: شعبُ الانتفاضهْ
نهض الماردُ: شعبُ الانتفاضهْ .

*

كنتُ وقتها شاويشـاً لقسم (1)، عنـدما أصدر «إيتسيك» قراراً يقضي بأن نطأطئ رؤوسنا وقت «العدد»، ولما أبلغتُه أمام المعتقلين أننا نرفض هذا الطلب . هزّ رأسه، وضرب عصاه بيده . . ومضى!

عند مغرب اليوم الثاني أخذوني إلى الزنزانة الضيّقة، الموضوعة بجانب ثلاث زنازين أخرى، هي كلها زنازين جاهزة، مكوّنة من بناء اسمنتي وأرضيتها مُغطّاة بكميات كبيرة من الجير «الشيد»، عرضها متر وطولها ثلاثة أمتار، لها بوابة حديدية سميكة . . . أخذوني، وأدخلوني إلى الزنزانة . . . وربطوا رجليّ بكلبشة . . . ويديّ خلف ظهري بكلبشة أخرى، ورموني على أرض الزنزانة وربطوا كلبشة رجليّ وكلبشة يديّ بكلبشة جديدة . . . هذه تسمى «ربطة الموزة»، حيث يتكور الشخص مثل الهلال، ووقعت الهراوات على كل جسمي، فهل أصرخ أم أحتمل وأصمت؟!

إذا صرخت، فإن هذا معيب لي، بصفتي شاعراً ورئيس اتحاد كتّاب فلسطين، وستهبط معنويات المعتقلين الذين ينظرون إلينا كقيادة للمعتقل!

وإذا احتملتُ وسكتّ، فإن هذا سيجعل الجنود يطمعون في ضربي، وسيقولون في أنفسهم: إن هذا لا يحسّ. . . فاضربوه !! لكن صوت عبد الناصر صالح جاءني برداً وسلاماً، حيث سمع هو والمعتقلون صوت الهراوات وهي تزنّ على عظامي ولحمي، وكانت الزنزانة تقع إلى جانب قسم 3، حيث عبد الناصر صالح، الذي وقف على برميل الماء البلاستيكي، وراح بأعلى صوته يقرأ مقطعاً من قصيدة لي ومقطعاً من قصيدته تلك . . . ولم يصمت عبد الناصر طيلة الأيام الأربعة التي أكلت فيها ما يكفي من الهراوات، ولم أشهد ولم أذق ما يفعل الشعر بالروح مثلما شعرت في تلك الأيام الأربعة .

كان صوت عبد الناصر الراعف بالشعر يصب في دمي حمماً من الغضب والصمود والجبروت، كان الجنود يضربونني، وكان عبد الناصر يعبئني بالشعر، وانتصر الشعر. . أربعة أيام من العمر الذي لا ينسى، لا أتذكر وجوه الجنود ولا طعم الضرب أو رائحة الزنزانة، كل ما علق ويعلق الآن بأنفي هو رائحة الشعر العابقة الجليلة . . حيث كان يناديني، ويسمعني أشعاره وأشعاري، ويشجعني! ولم أخرج من الزنزانة حتى أعلن المعتقلون الإضراب عن الطعام احتجاجاً على ضربي ومعاقبتي . . وأخرجوني. . وكان الرجل محمد الحوراني قد أصبح شاويشاً للقسم . . وليلاقي ما لاقيت بعد أيام قليلة . .

خرجت ولم أنس كلمات صنو روحي عبد الناصر صالح، الذي

وصل إلى «أنصار 3» شبه ميت من ضرب الجنود!
- كيف جرى ما جرى لك يا عبد الناصر؟

يقول المعتقلون الذين كانوا في الحافلة التي نقلتهم من معتقل طولكرم إلى معتقل «أنصار 3»، إن جندياً حقيراً طلب من عبد الناصر صالح أن يشتم «أبا عمّار»، فرفض عبد الناصر، فقام الجندي وخبط عبد الناصر على رأسه بالهراوة... وكّرر الجنديّ الطلب... وعبد الناصر مُصرّ على موقفه الشجاع... وما أن وصل إلى «أنصار 3» حتى كان رأسه مثل الباذنجانة الكبيرة المنتفخة... ومحيط عينيه أزرق.. لكن بصيرة عبد الناصر ظلّت باقية مثل النسر الباشق... في أعاليه.

*

ماذا لو مُتَّ؟ وجاءك ملاك الموت؟
ابدأ من أول المشهد، ولا تنس شيئاً
سيندفع الخبر الصاعق بين الجموع..!
هل تتخيّل المشهد جيداً؟ أكمل إذاً..

ستجتمع اللجنة النضالية، وستلتقي إدارة المعتقل، لترتيب نقل جثمانك، وسيحملونك وحيداً إلى أهلك..

توقف! كيف سيخرج أهلك لاستقبال موتك؟ وكيف سيصوّحون المدينة بصراخهم المفجوع..

.. وزوجتك، وأولادك، وأمك، وأشقاؤك، وأصدقاؤك.. والجنازة.. وبيت العزاء..

ترفع يديك، فتمسح دمعة حزنكَ على موتك! وعزاؤك أنك ما زلتَ حياً!

ولكن! لماذا يتكرر هذا المشهد؟ اللعنة . .

*

ما زلت أحتفظ باللوحة التي رسمها لي «سائد حلمي» على «بلوزة» بيضاء، أو قميص داخلي، كان أحد قطع الملابس الداخلية التي بدأت تصل إلينا عبر المحامين، من الأهل أو الصليب الأحمر. كنتُ معجباً بسائد حلمي، هذا الفتى الهادئ الصبور، الذي أمضى فترة اعتقاله في الرسم على الفالينات، هدية منه للمعتقلين، شرط أن يُقدَّم له بالمقابل إطار صورة، يُصنع من الكرتون والنايلون، ويتم تثبيته بخيوط ملوّنة، وله إطار معدني خفيف، هو ما يتبقى من أغلفة أنابيب معاجين الأسنان والحلاقة. كانت اللوحة بانوراما لوحدات المعتقل، وفي داخلها الأقسام والساحات والوجوه الغاضبة، وقبضة كبيرة تشقّ كل هذا الوجود، تشعّ من حولها الشمس.

ولعل سائد ابن مخيم العروب الواقع شمال مدينة الخليل، لم يكن خريج معهد للفنون الجميلة، لكنه كان علامة فارقة، طالما اعتمدنا عليها في رسم لوحات، وتخطيط شعارات، نزيّن بها ساحة أحد الأقسام، لتكون جزءاً من احتفالاتنا بالمناسبات الوطنية أو الدينية، والتي، دائماً، كانت تنتهي باقتحام الجنود للقسم، ومصادرة كل المُعلّقات، و«زنزنة» عدد من المعتقلين!

وفي إحدى المرات، كان على رأس حملة الاقتحام نائب مدير المعتقل، وكان ضابطاً يهودياً من أصل ليبي واسمه «ألبرت»؛ كان يتحدث العربية، ويعرف مزاج العرب وعاداتهم وطقوس حياتهم . . وعندما رأى إحدى لوحات سائد . . خرج من فمه صفير إعجاب حقيقي! وغمغم قائلاً: إنكم مصممون على الحياة يا أولاد الكلب! لكن كامل جبيل، الذي كان وقتها شاويش القسم، ردّله شتيمته بأحسن منها . . فبلع ألبرت الشتيمة . . ومضى!

في الوحدة «ج» القسم الثاني، وفي خيمة رقم 53، كان عبد الله علاونة «أبو الأمجد» ينام على بُرشه، وفوق رأسه تتدلى مُعلّقة سائد حلمي، لقد كانت لوحة لشهيد يضيء بدمه آلافاً مؤلّفة، يحملونه كالراية، في مسيرة هادرة!

- ما هذا يا أبا الأمجد؟

- إنها لوحة . . وعلينا أن نُجمّل كل شيء، حيث نقيم . . حتى أحزاننا . .

وعندما دخل الجنود، في ساعة شؤم إلى القسم، لمصادرة الشعارات واللوحات، صادروا لوحة أبي الأمجد . . فبكى، وكان إفراجه في اليوم الثاني، وكان ينوي حمل تلك اللوحة تذكاراً معه إلى البيت . لكنه حمل معناها الساطع، فما أن وصل إلى جبع، قريته الواقعة جنوب جنين، حتى تماهى في تظاهرة اصطدمت مع جنود الموت ، وراح الرصاص ينخّل جسده، حتى رسم، في اليوم الثاني، وفي شوارع جبع، لوحة سائد بنبضها وحيويتها ودمها الحقيقي .

*

لن يصدّقني أحد . . !

- لماذا؟

لأنني رأيته . .

- رأيتَ مَنْ؟

رأيت الذئب نفسه، ثانيةً، كان ينظر إليّ من خلف السياج، كان، كما رأيته أول مرّة، هرماً متهدّلاً، والدمع يبرق في عينيه . . وكأن الجنود لم يروه أو يحسّوا بوجوده!!

- ألم يره أحد غيرك؟

ربما، لا أدري، لكنني رأيته . . أقسم لك . . وبعد أن وقف مليّاً متجمداً ينظر إليّ، لفّ دورة كاملة . . وابتلعه الظلام . .

- ربما تهيؤات يا صديقي . .

لا، وسأنتظره الليلة، فإنه سيعود!

بعد ساعة أو ساعتين، جاء صديقي، وأيقظني بانفعال، وسحبني خارج الخيمة، فرأيت الذئب كما وصفه لي صديقي، غير أن ذئباً صغيراً يقطر الدم من عنقه المذبوح، كان مُعلّقاً بين فكيّ الذئب الذي . . ما أنْ رآني حتى عاد بهدوء من حيث أتى . .

*

هَدَموا . . . ؟!

- وما هدموا سوى بيت

ستُعلي سقفَهُ أيدي الطفولةِ والحجارة

سَجَنوا. . . ؟!
- قد أصبحتْ كلُّ السُجونِ
منارةً تلوَ المنارةْ
قَتَلوا. . . !؟
- وماذا إنْ غسلنا أرضَنا بدمائنا
فليقتلوا. . .
أعراسُنا ارتفعتْ وقد نلنا البشارةْ
جرَحوا. . . !؟
- فلْيجرحوا. . .
لا بأسَ من تفجير موجِ العشقِ
في جسد البكارةْ
قد أغلقوا. . . ؟!
- فلْيُغلقوا كلَّ المنازل
سوفَ نبقى في الشوارعِ
كي نسعِّرها عليهمْ
بالرجولة والجسارةْ
قد أبعَدوا العشرات. . . ؟!
- ماذا إنْ حملنا أرضَنا في القلب للدنيا قليلاً
سوفَ نرجعُ بعدَ أنْ نرمي إلى التاريخِ
قُضبانَ «النَّظارةْ»
مَنَعوا التَجوُّل. . . ؟!
- سوفَ نكسرهُ

ونُشعل في المواويلِ الشَّرارةْ
قَد قَلَّعوا الأشجَارَ. . . ؟!
- سيكونُ تحتَ جذورهَا
قبرٌ لمَن قصّوا ضفائرَها المُثارةْ
قَطعَوا الميّاه. . . ؟!
- ماذا إذا شربَ الرِّجالُ الظامئون جراحَهُمْ
وتَهلَّلتْ بهُم الحضارَةْ
مَنَعوا السَفَر. . . ؟!
- السَبْعُ يفتكُ إن تقيَّد في المغارةْ
قَد أحرَقوا. . . ؟!
- فلْيحرقوا
هذي جهنَّمنا صليناهمْ بها
ستظلُّ مؤصدةً تُنادي:
هل سيأتي من مزيد؟
هل سيأتي من مزيدٍ؟ هل سيأتي من مزيد. .

في شهر تموز 1988، أدخل الصليب الأحمر، رقع الشطرنج، والزهر (الشيش بيش والـ 31) إلى أقسام السجن، فوجد عدد كبير من المعتقلين ضالتهم في قتل الوقت، وتمضية ساعات الرمل الثقيلة. وأدخلت إدارة السجن «المقاشات» (صواني بلاستيكية مستطيلة لسكب الطعام في مربعاتها التي تفصلها خطوط بارزة) وأدخلت «القعارات» (صحون بلاستيكية كبيرة الحجم، قد تتسع لثلاثة ليترات من الماء). .

فاجترح المعتقلون لاستغلال هذه «القعاراه» معجزات مضحكة، أوّلها أنهم قطّعوا الخبز إلى مربعات صغيرة في القعاراه، وسكبوا كؤوس الشاي على الخبز حتى يرنخ، ثم يضعون قطعة المرجرينا «الزبدة» على سطح الخبز، ثم يقطعون أصابع الموز فوق كل ذلك، ويعصرون برتقالة أو اثنتين، ويتركونها قليلاً . . ثم ينقضّون عليها! وهم يفعلون ذلك، كعملية احتيال لإيجاد وجبة جديدة يسكتون بها نداء أمعائهم الخاوية . أما أبو عاصف البرغوثي وأبو محمود السلوادي، فلهما طريقة أخرى في استغلال «القعاراه»، حيث يدلحون فيها كمية الرز والشوربة وقطع الخبز وحبات الزيتون وشقفة المرجرينا والشاي . . دفعة واحدة، ثم يحركون بملاعقهم البلاستيكية هذه الخلطة . . ويبدأون التهام «القعاراه» وما فيها! وفتحي جرادات يجحظ بعينيه، ويفركهما . . غير مصدّق ما يرى!

*

مرّ أُسبوع، ولم يدخل بطوننا سوى الماء والملح، وربما سيطول الإضراب عن الطعام، وهنا تتفتق خيالات المعتقلين عن «أكلات» عجيبة! وقد هدّهم الجوع!

وفي هذه الأثناء، تتأكد من أن الله، عز وجل، لم يُخضع الإنسان إلاّ بالجوع أولاً، ثم بالنار والويل والثبور.

يجلس المعتقلون، يتذكر كل منهم ألذ طبخة، وأطيب طعام . . . فيقول قائل: تخيلوا لو أن الله ينزل علينا طنجرة ملفوف أو محشي! ويقول آخر: تخيلوا أن «منسفاً» أمامنا الآن . . ماذا سنفعل به؟ ويقترح ثالث أن

نتذكّر طبخة «المنزّلة» أو «البامية في الطابون مع لحمة رأس عصفور» .
أما أغرب ما سمعت، أن معتقلاً تخيّل «مرج بني عامر» مليئاً بالرز المغطّى باللحم، وتمطر السماء «شوربة» . . ونأكل بالمعاول!!
فيما رأى آخر أن برندة بيتهم مُغطاة بالكنافة . . فينزل من نافذة الشُرفة، ويغطس في الكنافة . .
أما الشيخ أحمد، فكان يدعو الله تعالى بأن يأمر الولدان المخلّدين، أن يهبطوا من الجنة، ويأتوا إلينا حاملين صواني اللحم والفاكهة والخمر الحلال . . وننام، وعلى أطراف أفواهنا بقايا ضحك ناشف، وما تبقى من صور اللحم والموز، وكلمات تدعو لأبي الشمقمق . . .
ولا سامحك الله يا ابن الرومي الذي تلمّظت أمام الزلابية العباسية الطافحة بالسمنة والسكر . . ولم تأكلها عنوة . . بالسيف .

*

دائماً كُنا نضع جانباً لبّ الخبز، ونلفّه في كيس بلاستيكي، ليحتفظ بنعومته، ونلحف في طلب تهريب رؤوس البصل من المطبخ . . وما أن ندخل الخيمة بعد العاشرة ليلاً، حتى يدفعنا الجوع إلى البحث عن أكياس الخبز وفحول البصل، ويكون عشاؤنا خبزاً وبصلاً . . وننام! وما أن نستيقظ صباحاً، حتى يكون «الفسفور» قد عبّأ الخيمة . . ويا سلام! على الروائح التي تفوح مع كل حركة، أو تحية أو تثاؤب كسول! وغالباً ما كُنّا نُطرّي لقمة الخبز والبصل بكأس شاي ساخن!
- كيف؟

كان بعض المعتقلين يتفنّنون بإتقان عمل الفتايل «بابور الورق»، حيث يحضرون لفافة ورق تواليت، ويفردونها . . ثم يغطّون سطح كل الورق بمادة المرجرين «الزبدة» ويعيدون لفّ الورق كما كان . . ويشعلون سطحها . . فتصبح مثل رأس الغاز! ثم يأتون بعلبة فارغة من مطبخ السجن، كانت إحدى المعلبات، ويجعلون لها يداً من أسلاك تلتف حول عنق العلبة . . يدلحون فيها الشاي، ويحملونها مثل القنديل فوق اللفافة المشتعلة . . حتى يسخن الشاي . . وبعد حين صرنا نشرب القهوة الساخنة . . منتصف الليل، وفي الشتاء الذابح! تخيلّوا !!

*

محمد روحي الملقّب بـ «أبي سلاح» شاب وطني صلب وهادئ، يحبّ أشعار محمود درويش، والحديث عن أسرار النساء . . وطالما شربنا سويّة الليالي مع القهوة، التي أعدنا تسخينها على «الفتيلة» . . وكان أول مَنْ قرأ مسودات «فضاء الأغنيات» ديواني الشعري الثاني في المعتقل، بعد ديوان «زمن الصعود»، . . وكان قد اقترح عليّ أن أُسميّه «جمهورية الخيام».

. . «أبو سلاح» هذا، كان يحمل، إحدى الليالي، علبة القهوة، المعلقة كالقنديل، فوق نار الفتيلة . . ولم ينتبه إلى أن القهوة كادت تتبخّر لكثرة تقلّبها على النار . . فأشرتُ إليه لينتبه . . !

– أين سرحت يا أبا سلاح؟

ابتسم أبو سلاح، وأنزل قنديل الماء البنيّ من يده، وضرب كفاً بكف . .

وضحك، كأنه سمع نكتة طازجة!

- مالك يا أبا سلاح؟ أضحكني معك . .

قال «أبو سلاح»: نفسي أن أبطح الشحرورة وسط الشارع الرئيس الذي يقسم وحدات وأقسام المعتقل . . وأمام الجنود وكل المعتقلين . . أوقفها، وأخلع ملابسها قطعةً قطعة . . وأرفع . . . وأضعهما على . . . و . . . ضحكت . . وضربت كفاً بكفّ . . فيما تعالت ضحكات اثنين آخرين اعتقدت أنهما كانا نائمين.

- ما بكما تضحكان . . يا ملاعين!

اعتدلا في جلستيهما . . وضحكا من جديد . . لقد كانا يحلمان أن يفعلا في الشحرورة مثلما حلم أبو سلاح . .

*

بعد عام تقريباً، من افتتاح هذا المعتقل الذي شطروه إلى نصفين، الأول لمعتقلي أبناء الضفة الغربية، والثاني لمعتقلي أبناء قطاع غزة، في محاولة من إدارة السجن لتعميق الفصل، وعدم إتاحة الفرصة لتكريس وحدة الحال، بين أبناء الشعب الواحد.

قلنا بعد عام من افتتاح هذه البقعة الجهنمية، أدخل الصليب الأحمر، ولأول مرّة، علب الحلوى والملبّس، لمناسبة حلول عيد الفطر، إلى المعتقل، وصدرت التعليمات لكل الأقسام أن يقيموا صلاة العيد جماعة في ساحات الأقسام، ومهما تكن النتائج!! وتمت الصلاة، ولم تستطع إدارة المعتقل فعل أي شيء لتعطيل هذا القرار الجماعي الحاسم!

واصطف المعتقلون في دائرة واسعة، في ساحة الأقسام، ووقف أحد المتحدثين المميزين ليلقي كلمة في المعتقلين، يشدّ أزرهم، ويهنئهم بالعيد، ثم صافح بعضهم بعضاً، وتناولوا حبة حلوى . . لم تستطع بالتأكيد أن تطفئ مرارة الحزن والفقد، أو تمنع بعض الدمعات من التقاطر الخجول .

ونادراً ما كان معتقل يعلم بموت أبيه أو أمّه أو أحد أقاربه، لصعوبة الاتصال مع الخارج، إلاّ إذا جاءت دفعة جديدة من المعتقلين، أو نقل أحد المحامين الخبرَ إلى السجين! عندها كانت لجنة القسم تفرغ إحدى الخيمات، وتحيلها إلى بيت عزاء، فيأتي كل المعتقلين قاطبة لتقديم العزاء إلى السجين المُصاب . . ويتبرع أحد الأخوة بتلاوة مباركة من آيات القرآن الكريم طيلة فترة تقديم العزاء، ثم يقرأون الفاتحة على روح المتوفى، وينفضّ العزاء، شرط أن يتم فرز ثلاثة من بلديات المُصاب أو أصدقائه، ليظلّوا معه طيلة أيام أخرى، للتخفيف عنه، ومشاركته ساعاته الصعبة الموجعة .

*

الكآبة هلاك، ينبغي ألا تصدع لها، وإلاّ دفعتك إلى حافة الجنون، لهذا، عليك أن تخرج من دوّامتها فوراً، وأن تستنفر كل أسباب قوتك وثباتك، وتطردها، كما يُطَرد الشيطان من الروح البريئة .

وعليك أن تشغل نفسك بالقراءة، والأفضل بالجلوس مع مَنْ تحبّ وتستريح، وأن تواجه حالة الاكتئاب بعقلك، وجهاً لوجه، كأنك طبيب

نفسك، تجمع كل عوامل الثقة والاطمئنان والقوة والزهو التي بداخلك، وتجعلها متراساً في وجه هذا الهواء الفاسد الغامض . . ومرّة تلو أخرى، يتراجع الاكتئاب، ويصبح أكثر هشاشة وضحالة وخفّة!

والسجن أرض خصبة لهذا النبت الشيطاني الذي يشبه الأفعى، أو الفأر النجس! وكلما تراكمت الهموم، تسللت الأفعى بنعومتها السامة إلى وريد القلب، وكلّما حضرت الأحزان والأسى دخل الفأر قلبك يقضمه بأسنانه المسننة!

والكآبة معادلة كيميائية كاملة، لا تؤثر في النَفْس أو الروح فقط، بل تحس بحبال أفاعيها، وهي تلتف حول مضغة صدرك، لتهتك أستاره، وتوقف َتدفّقه النوري . . البهيج! بل تخشى أن يحتشد قلبك، فجأة، برغوة الكآبة، فيضيق مجرى التَنفُس، وتصبح على موعد مع السيد عزرائيل!

ولعل حدوث اللامتوقّع، المخيف، أو ما لا نعرف نهايته هو السبب الرئيس للكآبة! ولسوء الحظ أن كل هذا، وأكثر منه، يحدث كل لحظة، ويقع أمام عيوننا، يومياً، في المعتقل، ونلمسه على جلودنا وجدران روحنا . . ورغم كل هذا، نُبعد هذه الكآبة بالحياة، بكل مكوناتها، من الكلام . . إلى الغناء، ومن المجابهة إلى التصميم الأمر الذي يعيد صياغتنا، ويجعلنا أكثر قدرة، وخرقاً للعادة، من غيرنا .

*

لم تكن الدولة العبرية بحاجة إلى سبب لاعتقال الفلسطينيين، فثمة قانون «يُشرّع» لها كل ما تريد، بدءاً من القوانين العسكرية، وانتهاءً بقوانين الطوارئ البريطانية البائدة، التي تجيز كل أشكال القمع والاستلاب وإزهاق الأرواح، بدعوى الحفاظ على الأمن والنظام!؟

ويقف «الاعتقال الإداري» في مقدمة قوانين الطوارئ، إذ يحق للدولة المحتلة حجز الإنسان ستة أشهر، دون إبداء الأسباب، كما يحق لها تجديد أمر الحجز أو الاعتقال ستة أشهر أُخرى.. وأخرى.. دون سقف أو تحديد. لهذا عمدت إسرائيل إلى هذه الحيلة «القانونية»، التي أتاحت لها اعتقال اثنين وأربعين ألف فلسطيني منذ تموز 1967 حتى تموز 1993، حيث أمضى بعضهم عشر سنوات في الاعتقال الإداري، أو عشرين أمر حجز إداري!

وتذهب الدولة العبرية حتى النهاية، في لعبتها «القانونية» هذه! إذ تحيل المُعتقل إدارياً إلى المحكمة العسكرية، لتثبيت اعتقاله، إن كان ثمة أسباب موجبة لذلك، أو لإطلاق سراحه، إذا لم يقتنع القاضي بأسباب الاعتقال. لكن التبريرات جاهزة، والمسببات حاضرة ومفبركة ومقنعة، الأمر الذي جعل تلك المحاكم صورية مئة بالمئة!

كُنّا نقف أمام «القاضي» العسكري الذي غالباً ما يكون ضابط مخابرات، وينبغي أن يكون مع «المتهم» محام ليترافع عنه.. وتبدأ اللعبة - المحكمة، وباللغة العبرية الفصحى.. ولمّاً يطلب المحامي من القاضي كشف أسباب اعتقال موكلّه، يبصق القاضي تلك الجملة الشهيرة التي تنهي المحكمة، ألا وهي «هناك ملف سرّي»!.. وبعد دقائق يصدر قرار تثبيت حكم الاعتقال.

بعد أن أنهيت الأشهر الستة الأولى، أي الاعتقال الإداري الأول، الممتد من 18/ 2 – 17/ 8/ 1988، تـم إطـلاق سـراحي! لكـن المخابرات الإسرائيلية، وبعد عشرة أيام، دهمت بيتي ليلاً، وقلبته رأساً على عقب، بعد أن حطّمت الأثاث، ومزّقت الفراش ومقاعد الكراسي، وصادرت كمية كبيرة من الكتب، وأخذتني مَعصوب العينين، وبعد شهرين من «الحجز الإداري»، كان ثلة من المحامين يترافعون عنّي في المحكمة، شأني شأن الكثير من المعتقلين، ولمّا بيّنوا للمحكمة أنه لم يكن أمامي وقت كاف «للاعتداء على النظام والأمن» لأنني، ببساطة، كنتُ معتقلاً، أجاب القاضي بأنه ثبتت على المتهم حيازة مواد تحريضية ممنوعة! ولمّا سأل المحامون عن تلك المواد، قال القاضي: ديوان شعر ذو مضمون عدائي ضد دولة إسرائيل، ومؤلّفه المتوكل طه. وعندما حاول المحامون إيضاح الأمر للقاضي بأن مؤلف الكتاب هو نفسه الذي يقف أمامه، رفع القاضي نظارته عن عينيه، وقال: إذاً لدينا سبب آخر لتثبيت حجزه واعتقاله.

*

معطف الليل من هواء! يفرد جناحيه وسادةً لإعادة ترتيب الأشياء، أو ليأخذ العيون إلى رحلة الغموض، أو الموت المؤقّت. والليل يبسط حريره البارد تحت رأس المُتعبين، فيمتصّ الغيظ والعرق المتيبّس، ويعرّي الغافي من كل حباله وقيوده، ويُطْلقه جناحاً يَغمس ريشه في الشهوات الممنوعة، أو ليتخطّى أسوار النهار، أو ليُخرج كل الرمل بصرخة كابوس حاد، واهتزاز الماء المتصبب من الجبين.

والليل يبدأ مشدوداً . . لينتهي بالركود الهادئ .

نتمطّى على الفراش الفقير، ونسند رقابنا على جدار مُرتّب، فيظلّ الجسد في مكانه، فيما تذهب الروح إلى أحلام يقظتها، وتعود لتصطدم بالنتوءات الصعبة، والمشاهد المكفهرة الخشنة .

ماذا حلمت أيها الراكض خلف خيط الوهم اللذيذ، هل وصلت إلى البيت، وكشفت الغطاء عن الجسد الرَخص البضّ . . وماذا بعد؟ هل أكملتَ الصورة التي ستظل ناقصةً ما دامَت الحياة . . ؟

تتعب الروح من مشاويرها البعيدة . . فيتسلل الوسن إلى صحنين ذابلين، هما عيناك . . وتنام .

«إيتسك» و«راز» ضابطا الأمن في معتقل «أنصار 3»، يعرفهما المعتقلون بمشيتيهما وهما يتبختران بين الأقسام، كل حين وحين . وكان كثير من المعتقلين يتشاءمون من هاتين البومتين الأنيقتين!

كان ضابطا أمن المعتقل يُرسلان في طلب بعض السجناء، وبالذات أولئك الذين ليست لهم تجربة في عالم السجن والاعتقال، وأساليب الدهاء في التحقيق والإسقاط . . . ويشنّان حرباً نفسيّة على «المطلوب»، ويضعانه في أجواء مخيفة وترقّب طويل، حتى تصبح «الفريسة» سهلة الوقوع في الفخ! ثم يُدْخلان «المطلوب» إلى غرفة مكيّفة نظيفة، ويجلسانه على مقعد مريَح، وأمامهما قنينة ماء مثلّجة وكوكاكولا وسجائر فاخرة، ويبدآن معه التحقيق . فواحد منهم «يشدّ» والآخر «يرخي» . . . وتستمر لعبة الترهيب والترغيب . . . ثم يطلبان منه أن يتخلّص من سعير المعتقل وأيامه القاسية، ويهوّلان الأمور له، ويهددانه، ثم يدّعيان أن لديهم أخباراً تفيد أن المعتقلين يشكّون به، وينظرون إليه

كمشبوه! . . . ثم لا يطلبان منه أن يتعامل معهما مباشرة، بل يقولان له: سنُطلق سراحك في المحكمة، وسنلتقي معك في أي مكان تريده.

*

لقد أفادت التقارير أن النسبة الغالبة من «المطلوبين» انتصروا على «إيتسك» و«راز» . . . ولم يقعوا في مطبّ السقوط. وقد تنبّهت قيادة المعتقلين إلى الأمر مبكراً، فبدأت شرح كل هذه الأمور للمعتقلين المستجدين، على طريق تحصينهم، وخلق مناعة كافية لديهم، ليستطيعوا مواجهة ذلك الموقف! ثم، وبطريقة غير مباشرة، تم فرز مجموعة من المعتقلين المجرّبين، لالتقاط مَنْ يعود من المقابلة. . . للاستفسار منه عمّا جرى ودار. . . ويرفعون تقريراً للجنة الأمنية المعنية بالأمر، لمتابعته، أو لاستخلاص العبر منه.

*

كان ثمة رأيان للمعتقلين، يتغالبان، لتسيير أمور السجناء. الأول يسعى إلى ضبط كامل الوضع في السجن بطرائق هادئة بعيدة عن إثارة الهوَس الأمني والضبط الحديدي، بل الدفع بالتي هي أحسن، ورصد المشبوهين، دون فتح زوايا للتحقيق معهم وإخافة ضعاف القلوب والنفوس، والعمل ما أمكن لعدم الانجرار لمصادمة إدارة السجن، وخلق حالة مشدودة حذرة، كلها ترقّب، وطوارئ. والرأي الثاني، يسعى إلى

تأزيم العلاقة مع إدارة المعتقل، ومصادمتها، والتحقيق مع المدسوسين، ومعاقبتهم، وخلق أجواء صارمة، وقيود حاسمة وتعليمات رادعة لضبط كامل الوضع في السجن!

وأعتقد أن الرأي الأول هو الأكثر عافية وصحة وذكاء، وهو الذي ساد وغلب! وهذا ما جعل مُناخ الحياة في السجن مُحتملاً ومعقولاً، وغير منفّر للمعتقلين الجدد، الأمر الذي جعلهم، وبعد الإفراج عنهم المرة الأولى، يعاودون نشاطهم الوطني خارج السجن، ويعودون ثانية، مطمئنين، راضين مرضيّين إلى «أنصار 3» أو غيره من المعتقلات.

*

مدينة العذاب، «أنصار 3»؛ هذا المعتقل الصعب أظهر وأخرج أجمل ما فينا، نحن المعتقلين الفلسطينيين، كما أوضح أسوأ ما في الجنود الإسرائيليين.. لأن مهمّتنا كانت تقضي أن نتربع على عَرش الزلزال، مثلما دفعتهم أوهامهم إلى التشبّه بأبشع المخلوقات، وتمثّل أكثرها دموية!

ولعل ذهابنا بالجَمال إلى أقصاه، هو الذي خلق لدينا قوّة إضافية! ولا أعني جَمال المكان، بقدر ما أعني عيوننا الجديدة ورؤيتنا العميقة المختلفة، التي رأت المكان، وسبرت غوره، وأحاطت به وأدركته، واجترحت الأشكال والآليات المناسبة، للتعاطي معه، بحيث ظل المكان تحت سيطرتنا ما أمكننا ذلك.

والجمال داخلي بالضرورة، يتعلّق بتجاوز نقاط الضعف فينا، بعد التوقف أمام الخاصرة الضعيفة، أو الثغرات في تربيتنا الجمعية.

والجَمال، هنا؛ قوةٌ حالت دون تفريغنا، من محتوانا النضالي والإنساني والثقافي، وخلق حالة من العدمية فينا . . . ورافعةٌ اعتلت بنا، فوق مشاريعنا وأحلامنا الفردية؛ بدءاً من الغرائز المكتسبة، انتهاءً بنفي الخوف، في ظل التماهي الجماعي، والتشابك الدافئ الذي طرد الإنكفاء والتراخي والإحساس المرضيّ بالوحدة .

*

بدأت رسائل الأهل تفتح لنا نافذة نتنفّس من خلالها، وأصبحت صور الزوجة والأولاد تطمئننا عليهم، وشيئاً فشيئاً، بدأت الخيمات تعجّ بالصور المعلّقة بإطارات مصنوعة في المعتقل، كُلٌّ يُعلّق صور أسرته فوق رأسه، وغالباً ما تلاحظ معتقلاً يسرح مع تلك الصورة المعلّقة بصمت صاخب أمامه! كأنه يقول :

يا امرأتي التي أهوى
أُحبّك كالخرافة والعَذابْ!!
ومُنايَ أنْ أمشيَ إلى كَسَلِ المَفاصلِ
بالزوابعِ والرُّعود
وأنْ أرُشَّ على نُعَاسِ عيونِكِ النَّجلاء
شهْدَ البرْق
أوْ هَلَعَ التَّوَجُّعِ والتلذُّذ والغيابْ
وأُحَرِّقُ الزَغبَ الطريَّ، وأشتهيه

وأُشعلُ الصَّدرَ الشهيَّ، وأشتهيه
وأُوقدُ الجَسَدَ المُبلَّلَ بالأوار، ويَشتَهيني
ثُمَ أُوَقدُهُ . . . لنغرقَ في الَضبابْ
وتطولَ غفوتُنا
لنرجعَ كي نذوبَ معَ التموّجِ
تسحِقينَ الشمسَ في ظهري
وتسكنني البحارُ الصاخباتُ
أروحُ مع دوَّامة الأضواءِ
تصهرُني الشراسَةُ
أرتضي موتي
وأعبدُ فيك ريحَ الندِّ والغاباتِ
أخلعُ وجهيَ الشرقيَّ
ما دامتْ تضاريسُ الخصوبة
لم تُدجِّنْها الخشونةُ والصلاةُ . .
أحبُّ دفني فيك يا هذي
خُذيني، وافتحيَ كلَّ المعابد والمُهود
فإنني طفلٌ يُخربشُ فوقَ ألوَاحِ الإلهَ
طقوسَ مولده الشقيِّ
أُحبُّ تشييعيَ على بحرِ الرَّذاذِ
اللاّهب الورديِّ
أهبطُ فيَ بهاء اللذَّة القُصوى
ويجذبني القَرارُ . .

يطيبُ منْ فمك الرِّضاب .
ويكونُ يا امرأتيَ
بأَنا قد زرعنا عشقَنا طفلاً
تزيّا في الحَنايا مثلما شَئْنا
فنامي كي يتمَّ الحملُ
فالحَمْلُ نُضوجٌ وشقاءٌ واصطحابْ . .
وَغداً هُزّي جذوعَ النخلِ
إن شقَّتْ بُروقُ الألم الصَّاخبِ لحمَ القلبِ
طوبى لرهام العَرق الَفضيِّ
ينسابُ مَعَ الأوجاعِ
لا بأسَ على الآه
ودمع الجُرْحِ
لا بُدَّ من الصَرخة حتى نكسرَ الصمتَ
ولا بدَّ من الموت لَنحيا
فإذا كانتْ فتاةً
خضبِّيها بدمِ الجرحى ليومِ العُرْسِ
أو كانَ فتىً
فلْتزفِّيه إلى عُرس الشبابْ .
واجعلَي أثوابَهُ منَ راية الشعب
احمليه بين كفيك لمتراسَ عنيدَ
واغسليَه بدخان اَلعَجَلِ اَلشمسَّيِّ
قومي واَسمعيهِ أُغنياتَ النارِ

قومي عمِّديه بجلال الثار
قوميِ واجعلَي أيقونَةً منَ حجرٍ صَلْبٍ
على صدْرِ صغيري .

*

وفي فترة الاعتقال الثالث، كان موعد ولادة زوجتي! وربما لم أكن قلقاً عليها، لأنها محاطة بعائلتها وأهلها، وباهتمامهم الحريص ورعايتهم الكبيرة، ودلالهم الواضح، ولأن زوجتي من النوع الصلب الذي يستوعب تغيّرات الحياة، ولا يَنكسر أو يَنهار أمام حدث هنا أو أمر هناك! بل إن مرونتها ووعيها وتجربتها في الحياة علّمتها أن تكون واقعيتها سبباً لصالحها ومعها، وليس عليها. . وبعد أيام وصلتني رسالة تبشّرني بميلاد «نوّار» الآية الثانية، على ألواح قلبي، بعدَ أن ملأت «هزار» حياتنا بهجة وحيوية!!

. . هل أَتوكَ ليخبروك
بأَنَّ نوّار البهيّة قد أتتْ؟
ما أجملَ الأطفالَ!!
آه لو تراها . . تُشبهك
عَينان من عسل البحار
وشعْرها حنّاء أُعراس الهزار
لكنّهم أخذوكَ منها،

من ضفائرها الصغيرة،
من مُناغاة الشفقْ . . .

*

– هل تذكر تلك الليلة؟!
كانت متجاوبةً دون اتفاق مسبق، كأن ورقة الليمون التي طبعتها على بوابة الدار، و«الصمْدة» وتلك الأغاني الهائجة الحلوة، كلّها تؤذن لأن يدخل الرجل على زوجه، فتخلع، لأوّل مرة، كل ثيابها، وتندسّ تحت حرير الترقّب واللمعة الخارقة، التي ستجعلها امرأة من جديد، وتطوي سنوات الفتوّة، وتضعها على مدرج الأمومة . . والغرق الحلال!

– أين أنت الآن . . أما كان بمقدور أمك أن تلدك طائراً يحطّ أنّى شاء، ويهبط حيثَ ربابة الشهوة الجارحة!
عليكَ أن تنسى، وأنت تذرع دروب «جمهورية أنصار»، كل النساء . . وأن تُبقي نفثاتك المحمومة، وخيالاتك الفوّارة، في ثلج العمل، وأن تُحنّط صهيلك، إلى الكشْف الآتي . .
– لكنك تتحسس في الليل عنق النار، وتخشى من فيض العسيلة، ودفقة صبابات الخيال!
سأحبس النار في القمقم، حتى ييسر لهذا الجان، مَنْ تحكّ فانوسه السحري . . وبعدها، ليكن الطوفان . .
– ذكّرتني بالجنّيات اللواتي يعشقن الرجال، لماذا لم تعشقني جنيّة مليحة،

وتأتي بطاقية الإخفاء، لتطفئ هذا الموقد؟؟ أين أنت أيتها الجنيّةُ . . تعالي . . واصحبيني إلى مدن النحاس البعيدة . . الغارِقة في قيعان الماء . .

*

كان بعض الذين أُفرج عنهم، يبعثون بصورهم وهم يجلسون قبالة «صدر منسف»، أو «كوم لحمة مع الرز»، أو وهم يلتهمون «صدر دجاجة» . . . ليغيظوا بها أصدقاءهم الذين خسروا أكثر من عشرين كيلو غراماً خلال الأشهر الستة الأولى في السجن . . وأصبحوا رشيقين أكثر من اللازم، ويصلحون «مانيكات» رجّالية لعرض الأزياء! كما كان يقول جمال الديك هذه الجملة . . دائماً، ويُوجّهها لعلي الرجوب السمين «الناصح»، كلما رآه!!

وخوفاً من أن تصبح لنا جدائل وضفائر مثل الخنافس أو الجييز أو البوهيميين، وخوفاً من انتشار القمل والبق . . . حرصنا على حلق شعر رؤوسنا، وبالأمر التنظيمي الصارم! وكان حلاّق القسم (حسام الحرامي)، ابن قرية جيوس الواقعة شمال شرق قلقيلية، وهو صاحب صالون «الناطور والحرامي» في مدينة طولكرم! كان شاباً مهذباً ذوّاقاً، ولا يشبه أخاه غسان الحرامي، الذي تعتّق في الظُرْف والسجون . . وجاءنا، هنا، ليكون، حيثما حلّ، سبب الضحك العاليَ، وخفّة الظلّ، وسرعة البديهة الفكهة الحاضرة.

وبعد أن يُنهي «الحرامي» حلق رؤوسنا، يقوم بتسليم عدّة الحلاقة لمسؤول المخزن الجندي الإسرائيلي «شوكي» الذي كان يخاف، لسبب غامض، من قدورة موسى، مُمثّل المعتقل في المطبخ والمخزن.

لم أكن أرغب في توضيح سبب خوف «شوكي» من قدورة موسى، لكنني سأقول. . . ومهما يصير . . يصير!

كان قدورة أو «أبو موسى» يأخذ من المحامين مبلغاً من المال، ثم يعطيه لـ «شوكي» ليشتري لنا أجهزة راديو صغيرة، حيث يأخذ «شوكي» ثلاثة آلاف شيكل، ليشتري لنا أجهزة بستمئة شيكل، والباقي يأخذه لنفسه، الأمر الذي وفّر لكل الأقسام أجهزة راديو وبطّاريات. أي أن أبا موسى «كَسَرعَيْن» «شوكي» . . . وأصبح يطمع في أن يشتري لنا ما نشاء، شرط توفير مبلغ مُغر من الشواكل!

كانت اللجنة الإعلاميّة تتسلّم المذياع، وعليها أن تسمع نشرات الأخبار، وتلخّصها، ثم يتم تعميمها على الأقسام، وكان إبراهيم رمضان المسؤول عن كل أجهزة الراديو ومتابعة أحوالها، وإخفائها . . وبهذا لم ننقطع لحظة واحدة عن المحيط المتفجّر الطاحن! وهنا لا ننسى أن نشير إلى الصديق الصحافي سالم أبي صالح، الذي كان يوحي بعظمة وأهمية وخطورة المهمّة التي يقودها وهي «سياقة» المذياع، وقيادة الدفّة الإعلامية، ونشر رذاذها اللامع الحلو (التقارير والأخبار) إلى كل الجهات، عدا قيادته القسم الذي استشهد فيه بسام السمودي يوم 16/ 8 المشؤوم . . . وجدع يا أبا صالح!

*

دخل «ألبرت» اليهودي، الذي لم يعد ليبيّاً، مع أكثر من مئة جندي، أيديهم على الزناد، فجأة، إلى القسم! وأمروا المعتقلين أن

يجلسوا لـ «عدد» استثنائي، فجلس الجميع، وراح الجنود يفتشون بين الأبراش والبطانيات وأكياس ملابسنا الداخلية . . . وأخيراً عثروا على «المذياع». وتم استدعاء شاويش القسم منير العبوشي للتحقيق معه عن كيفيّة دخول المذياع، رغم تلك الإجراءات والتفتيشات! وكاد ألبرت يفقد أعصابه، ويصيبه الجنون: كيف أدخلتم الراديو؟؟ . . . وأخيراً طلب ألبرت من منير العبوشي أن يعلمه كيف تم إدخال المذياع، ووعده بأنه لن يعاقب القسم بالسجائر أو بمنع زيارة المحامين أو بوقف الرسائل، لكن منير العبوشي وجد جواباً مقنعاً وهو أن الجنود الإسرائيليين وضعوا هذا الراديو بين أمتعتنا، ثم ادّعوا انهم وجدوه . . .
ولّما سأله ألبرت: ولماذا نفعل ذلك يا عبوشي؟
قال له منير: حتى تعاقبونا يا ألبرت!
وتمت معاقبة القسم أسبوعاً كاملاً بالسجائر والقهوة والرسائل وسماع «صوت إسرائيل».

*

سلك معدني شديد يلتف حول رأسك، يشتدّ، ويضيق. . فتنهض من نومك، وتجلس حتى تتأكد أنك لن تموت الآن!
وتحاول أن تتشاغل، وأن تفرك صدغيك . . وتنظر حولك، فترى نزلاء الخيمة نياماً، وموسيقى الشخير العالي تتعاكس وتتقاطع، كأنها أوركسترا موزّعة بين شخير هذا وشخير ذاك . .
- فكيف سيبارحك الأرق، وينقطع السلك المعدني، وتنام؟

تشعل السيجارة الأخيرة، وتنظر لعلّ أحداً من الزملاء، أصابه الأرق، لعلّكما تتسامران . . فيقطع تفكيركَ صوتُ الموسيقى السفلى التي، غالباً، ما تعقبها رائحة البيض الفاسد!

إذاً، كيف ستنام!

اللعنة على المعتقل، وعلى الليل والأرق . .

تحاول أن تدفن رأسك تحت البطانية الوسادة، فتختنق من رائحة الرطوبة المشبعة الثقيلة . . وترفع رأسك . . وتبقى بين يقظة وصوت وشخير ورائحة . . حتى تنكسر قشرة الليل، ويبدأ الديك البعيد بإيقاظ الشمس . . وبعد ساعة، ربما، تستيقظ مضطراً لـ «العدد» . .

تمشي متثاقلاً، كأن رمحاً قد فخت جمجمتك، واستقرّ في جبهتك، أو كأن رأسك قد فارقك من صداعه المهلك، وشظاياه الحارقة . .

يا إلهي! ما الذي جاء بي إلى هنا!؟

*

لم تكن «الجندرمة» قادرة على قتل تلك الأفعى التي يتحدثون عنها، غير أن عاملي التنظيف والطبّاخين الذين كانوا يحملون بقايا الطعام والخضروات في أكياس وسلال لإلقائها في الحفرة العميقة التي وجد الجميع أنها مناسبة لاحتواء كل البقايا والفضلات البشرية، كان هؤلاء العمال يسمعون صوتاً أقرب ما يكون لصفير الزوبعة، قادماً من جنبات الحفرة ومغائرها وشقوقها الكثيرة والعميقة، لكنّ جندياً انكشارياً ابيّضّ شَعره فجأة، أقسم على المصحف، وهو ينتفض راجفاً، أنه رأى أفعى بحجم مئذنة قريتهم.

في المساء، أمر الضابط العسملّي بإشعال نار ضخمة حول الحفرة، وبعث في طلب شيوخ القبائل المحيطة ليتبيّن قصة أفعى تلك الحفرة. أجمع شيوخ القبائل؛ على أن هذه الحفرة انشقّت فجأة إثر رعدة شتوية صعقت الأرض فخسفتها، وأحدثت فيها هذه الحفرة التي لا يعرف أحد قرارها، لهذا سُميّت المنطقة بـ «الحفرة» أو «الجورة». ولمّا أرادت القوافل المتجهة شمالاً من سيناء، التزوّد بالماء، كانت تُعرّج على هذه الحفرة التي قيل إنها ظلت تفيض بمائها حتى سنوات قريبة. لهذا السبب - قال الشيوخ -: أقامت الدولة العثمانية مركزاً إلى جانبها كنقطة حراسة، سُمّيت بـ «مركز الحفرة» أو «الجورة»، بل إن شيخاً يافعاً أضاف: «إن ماء الحفرة قد غار في الأرض منذ أن أُقيم أول مركز للجندرمة في هذه المنطقة!»

وعندما جاءت بريطانيا، تسلّمت المركز والحفرة، فأطلقت على المركز اسم (عوجا حفير) وجعلت الحفرة مكبّاً للنفايات ومصبّاً لشبكة المجاري، بل مدفناً سريعاً وسهلاً لكثير من الجنود البدو الذين رفضوا

أوامر الضباط البريطانيين، أو الذين جُرحوا في الحرب من ابناء العرب والأقليات والهنود!

ولّما وقعت الدولة العبرية على هذه الأرض، يُقال بأنها ألقت بجثث الأسرى المصريين في قاع هذه الحفرة، وأبقتها، طبعاً، مكبّاً للنفايات ومصبّاً للمجاري.

ويبدو أن الأفعى التي يتحدثون عنها، وجدت ما تأكله طيلة سنيّ «العُسمليّين» والانتداب والاحتلال اليهودي، غير أن اليهود، رأوا، ربما، الأفعى فابتعدوا قليلاً وبنوا السجن الذي أسموه «السجن السابع»، وضربوا سياجاً حول الحفرة، لكنّ عدداً من الجنود اليهود اختفت آثارهم، ولم يجد ضُبّاطهم تفسيراً لغياب جنودهم الغامض، سوى أن الصحراء ابتلعتهم، رغم أنهم يدركون أن قوّة غامضة اختطفتهم وابتلعتهم، وربما يكون هذا من فعل الأفعى، لكن الضباط تطامنوا فيما بينهم، ولم يذكروها بسوء.

*

كان أحد المعتقلين قد ازدحم الماء بجسمه، فاستيقظ منتصف الليل، وتوجّه إلى وحدة المراحيض الواقعة خلف الخيام أقصى ساحة القسم، لكنّه، فجأة، توقّف وأُغمي عليه، ولّما تنبّه شاويش القسم لما وقع له، حمله إلى خيمته ورشّ على وجهه الماء، وخضّ بكفه خدّه غير مرّة، لكنّ الشاب، وقبل أن يستيقظ، تماماً، كان يهرف بكلمات تردّد فيها قول: الأفعى . . . الأفعى.

بعد قليل لم يصدّقه أحد!! قال، وألحف، وأقسم، وأغلظ، أنه رأى أفعى طولها أكثر من عشرين متراً وارتفاعها يطاول علو السياج!

*

كان الصيف قائظاً ونسائم ليله تهمس بخجل، تحمل بعض الصبا، فينتعش النائمون الذين تمدّدوا على «بروشهم» دون غطاء، لكنهم استيقظوا واحداً تلو الآخر، على صوت جاءهم من بعيد، لكنه موحش وغريب، ويبدو كأنه يفحّ من تحت رؤوسهم.

اعتدلوا في جلساتهم، وظلّوا ساهمين، والصوت يتجاوب مع صداه... وبقوا على هذه الحال حتى انقطع الصوت واختفى!

ما هذا الصوت؟ قال بعضهم: هذا صوت نحيب قلب الأرض التي تنذرنا ببركان قريب.

وقال البعض: هو صوت طير خرافي جاء ينشر ريحاً جديدة، ستغطي الصحراء وتحرقها من جديد.

وقال البعض: هذا صوت آلات وماكينات اخترعها الاحتلال الإسرائيلي ليُرهبنا ويقضّ مضاجعنا ويخيفنا.. فلا تقلقوا.

وقال البعض: هذا صوت أفعى عمرها ألف عام، مُغطّاة بالريش كما الطاووس، ولها قرنان كالتيس البريّ، مثلما لها في كل فصل رجلٌ أو دابّة تبلعها دفعة واحدة، وتخلع ثوبها مرّة كل عام. تسكن هذه الأفعى مغائر البرق والصواعق وتلد مع الرعد. منذورة إلى يوم الدين، لتكون نموذجاً لأفاعي يوم الحساب. لا تأكل إلاّ قاتلاً أو قاطع طريق، وتنتحب

كلما بكت أرملة أو جاع يتيم، دمعها صناديق الذهب المخبّأة في خواصر الآبار والمغائر والجبال، وغضبها وباء البلاد الذي لا يُبقي ولا يذر. تموت إذا استتب العدل في المعمورة، وتدفن عظامها حتى لا توخز ناقة تحمل حنّاء عروس. تتقن كل لغات الأرض فهي صنو الملك النبي، ولديها علمُ الجان الذين حبسهم سليمان في قوارير النحاس والزجاج، دخاناً فَي قيعان المحيطات. لديها مرونة التحوّل إلى عروس أو رجل أو عجوز أو فرس أو ما شاءت، لهذا تتحوّل إلى امرأة تطرق باب الأيتام لتحضنهم وتمسح رؤوسهم بريش يديها وتحمل لهم الطعام. وتقف حارسة للشيخ الذي قتلوا أبناءه، وتوقد له الحطب وتحدّثه عن صبر الرجال. وتقف فرساً تحمحم بين يدي الفارس الذي اغتصبوا أهله وقافلته.

تنسرب مثل الحلم إلى عينيّ التاجر الأمين، فتحذّره من السطو القادم، أو الحريق المعدّ، وتهمس في أذن العروس فتعلّمها لغة الريحان وطاعة الجسد.

تصعد إلى السماء الدنيا، فتحمل غيمة مكتنزة وتبعثها مطراً يطفئ نار الاعتداء. أو تنخرط مثل اللولب دوّامة في وجه قافلة العبيد أو النخّاسين. ترقص على دفوف البيادر وليلة ميلاد هلال العيد، وتبكي إذا احترق قلب والد، أو انشلخ عقد الدار.

*

الآن يعلم المعتقلون مصدر النحيب الغرائبي الذي أحاط بالأقسام ليلة سقوط الشهيدين في «أنصار 3». واليوم يدركون سرّ قدوم الغيمات

التي أنزلت ماءها في عزّ صيف الصحراء فابتلّ رمل الطرقات، وطابت هذه المعمورة الصغيرة لقاطنيها . ولهم أن يعرفوا مَنْ الذي كان يفرد ريشه في السماء البعيدة، فيظلّل الأسرى، ويردّ شأفة الشمس الوهّاجة عنهم .

وجاءت الساعة التي تكشف عن وجه ذاك الذي كان يعبئ براميل الماء الفارغة، والمعتقلون نيام، أو الذي كان يمسح عرق الحُمّى وقطرات الوجع عن جبين المرضى، أو الذي كان يجمع الملابس (الغيارات) المُتّسخة من كل الخيام فيغسلها . . ويطويها نظيفة عند رؤوسهم .

*

كُلّما توجّه إلى وحدة المراحيض، يتوجّس خيفةً من أنْ يقع! وعلى ما يبدو، فإن الحرص الزائد يؤدي إلى نتيجة معاكسة . فما أن مغصه بطنه، وتلوّت أمعاؤه، حتى فتح باب الخيمة، ودلف إلى صندوق الزنك الكبير، ونسي أن يغلق باب المرحاض وراءه . . . وجلس ينتع ويشدّ على ليف بطنه، ثم انتبه إلى أن الباب مشرع، فحاول، وهو مقرفص، أن يردّه بيده . . .

في المرحاض المجاور كان معتقلٌ آخر يقضي حاجته، سمع ارتطاماً وبقبقة وتهويشاً وصراخاً مكتوماً، فاعتقد أن زميلاً له وقع في الجورة، فقطع جلسته، وخرج مفزوعاً يخبر المعتقلين عمّا سمعه!!

وما هي إلاّ ثوان، حتى كان كل معتقلي القسم يحيطون بالمراحيض، لكنهم لم يروا شيئاً، وبدا سطح الماء، الطافح بالوسخ

والغائط والورق الذائب المتفسخ، ساكناً! كان لا بُدّ من أن ينظر مسؤول كل خيمة فيحصي عناصر خيمته، ويعدّهم فرداً فرداً . . . والمفاجأة كانت أن أبا ضحى السوداني غير موجود؟!

- إذاً، أبو الضحى هو الذي سقط في الجورة؟!

قالوا: انظروا بُرْشه لعله نائم . . .

- بُرْشه فاض . . .

ماذا سنفعل، قال شاويش القسم؟!

*

لاحظ الجنود أن ثمة جلبة حدثت في القسم، فتوجه الضابط المناوب وسأل الشاويش عن الأمر؟ لكن الشاويش، وبعد أن أمر المعتقلين بالدخول إلى الخيام، أخبر الضابط الإسرائيلي أن شاباً مريضاً بالإسهال هو سبب هذه الضجّة، لكنه تحسّن!

ذهب الضابط، ودخل المعتقلون إلى خيامهم، مع الثانية بعد منتصف الليل!

بعد ساعة أو يزيد، خرجت لجنة القسم بقرار نهائي مفاده: أن يتم إبلاغ إدارة السجن بسقوط أبي ضحى في الجورة، ويتم فرز ثلاثة من الشبان، لتقديم شهادة (إفادة) إلى إدارة السجن، تؤكد أنهم شهود على سقوط أبي ضحى، وهو يقضي حاجته، وعلى شاويش القسم أن يبلغ الضابط الإسرائيلي المناوب بذلك، قبل أن يتم إجراء «العدد» الصباحي بعشر دقائق.

خرج شاويش القسم وأعضاء اللجنة، وتوجهوا إلى المراحيض التي انقطع زائروها، لعلهم يروا جثة أبي ضحى، أو أي أثر يدلّ عليه، فعادوا أدراجهم، إلى الخيمة، ثانيةً، ليجدوا النقاش المحتدم بين المعتقلين على حاله .

- يجب أن ننقذه، وبالإمكان أن نربط أحدنا بحبلٍ نصنعه من قمصاننا، وندلّي شخصاً منّا ليبحث عنه، ويخرجه .

- هذا مستحيل، لأنه انتحار . . ولا فائدة من إخراجه بعد ساعتين، لأنه مات وشبع موتاً، ولو أردتم إنقاذه، لفعلتم ذلك فوراً .

- يا إخوان! لو مات أبو ضحى لطاشت جثته ، وإن عدم ارتفاعها دليل على أنه حيّ .

- حيّ؟ ماذا تقول؟ هل جننت؟ فهو إنْ لم يمُت غرقاً، فقد مات من الرائحة والقرف . .

- فكّروا كيف سنغسل جثته، ونكفّنه، ونضمن أن توصله إدارة السجن إلى أهله، شهيداً معزّزاً مُكرّماً . . . وأقترح أن نفتح باب العزاء منذ الصباح، ولمدة ثلاثة أيام!

- يجب أن نضرب عن المراحيض، كما نضرب عن الطعام، حتى يتم تحسين وضع المراحيض، ونتجنّب سقوط آخرين . . أية ميتة لقيتها يا مسكين . . يا أبا ضحى؟ الله يرحمك!

- هناك ثلاثة معتقلين من دير السودان، وواحد منهم هو قريب أبي ضحى، في القسم الثاني، يجب إبلاغهم بالأمر . . . وتقديم العزاء لهم . . .

- يجب، أولاً، أن نحقّق مع الشاب الذي أبلغ عن سقوط أبي ضحى

في الجورة، لنتبيّن علاقته بالأمر، ونسأل من أين هو، وهل ثمّة عداوة بينه وبين أبي ضحى. . . ؟!
– يا جماعة! صلّوا على النبي . . الصباح رباح، اذهبوا لأبراشكم وناموا. . . وغداً، لكل حادث حديث.

*

ربما نام بعضهم أو كاد. ومع الخيط الأوّل من الفجر، دخل شاويش القسم إلى الخيمة الأولى لإيقاظ الطبّاخين، الذين يجب أن يتوجهوا إلى مطبخ المعتقل لإعداد وجبة الفطور، قبل «العدد» بساعتين. . ومن ثم توجّه إلى الخيمة الثانية لإيقاظ رئيس لجنة القسم، الذي ذهب إلى خيمته ولم يعدّ، فوجده ممدّداً بحذائه على البرش، دون غطاء . . . لكزه بقدمه، ونادى عليه . . . وفجأة دخل شاب، وأخبر الشاويش أن أبا ضحى نائم في برشه!!؟
تحلّق المعتقلون حول أبي ضحى ينظرون إليه ويتفحصونه، كأنهم يرونه لأوّل مرّة، وهو مبتسم، يؤكد لهم أنه لم يبارح بُرْشه، وكان نائماً. . . ولم يسمع شيئاً، ولم يذهب إلى المراحيض!!!
انفضّ المعتقلون، وانفردت أساريرهم، وظنّوا أن كابوساً جماعياً أصابهم، أو أنهم كانوا مسرنمين. . .
اختلطت ظنونهم، وقلّبوا شفاههم، ولم يجدوا بُدّاً من تصديق ما قاله الرجل عن نفسه!
– في الأمر ريبة!؟ قال شاويش القسم لنفسه، ثم سأل أبا ضحى: أين كنت الليلة؟

أجاب: في خيمتي وعلى بُرشي . . .
- لم تكن في خيمتك، ولا في بُرشك! بل إن رائحتك تضجّ بالبارفان، وها هي ذقنك ناعمة، كأنك خارج من حمّام تركي، وملابسك نظيفة ومكويّة، ألا تريد إخباري يا أبا ضحى، أم أنك تعتقد أنني غبي؟!

ابتسم أبو ضحى، وشدّ على يدّ الشاويش، وأكّد له أنه سيخبره بكل شيء، بعد الإفطار.

*

جاءتني، كالعادة، بعد أن نام الزملاء، وقبل أن تحملني تحت جناحها، لفّتني بأوراق وردة بلون الأرجوان المخملي، وأخذتني . . . وشعرت أنها غطست في بحر، ثم مررنا بسراديب طويلة معتمة، لنُطلّ، بعدها، على مدينة منطفئة ساكنة، كأن أهلها عميان نيام أو أموات. مدينة، لا ترى في أفقها إلا نتوءات قباب، وشبه مآذن خرساء مهجورة. شاسعة، حتى لا ترى آخرها، كانت سطوحها كابية كالمرآة المهترئة، باردة، لا غيمة تعلوها ولا غراب. شوارعها مهجورة، والصمت المُفزِع يعوي أمام حوانيتها المقفلة. لا شجر يتمايل فيها ولا ماء. يضيء غَبشَها قمرٌ رمادي كئيب. مدينة موحشة، كأنّها بُنيت تحت سقف مغارة خرافية، وكأنّ سقف المغارة قد طار، فظلّت مُحاطة بجدرانها المسكونة بالعظائيات والعشب المتشابك الهائش. وفي جحور تلك الجدران الجبلية، تتقافز السناجب والعرسات والجرذان والخفافيش المعتمة.

قالت لي: هذه المدينة يسكنها مصّاصو الدماء الذين يجرّون ملابسهم

السوداء الطويلة خلفهم، كأنهم يكنسون الشوارع بها، في الليل البهيم . . . ويقفون خلف الأبواب الصامتة، لينقضّوا على مَنْ تحمله الريح إليهم، أو الذين يتدحرجون ويسقطون، من أعالي الجبل. لأنفاسهم النتنة رائحة الموت، ولأنيابهم الحادّة صعقته المُهلكة.

– وأين سكّان هذه المدينة؟

قالت: هم سُكّانها

– لمَ لا تُخلّصي المدينة منهم؟

قالَت: أنتم الذين يجب أن يخلّص المدينة منهم. .

– كيف؟

قالت: بأن لا تغيب الشمس.

– لكنها تغيب . .

قالت: أشعلوا شمساً من دمكم وأبدانكم . .

وتجاوزنا المدينة . . . وحطّت بي، في غرفتي . . . وقبل أن تزيح الشمسُ لحافَ البحر عنها . . . عادت بي إلى خيمتي.

وما أنْ أنهى أبو ضحى كلامه، ونظر إلى شاويش القسم، حتى وجده ذاهباً في نومه!

وأبو ضحى شابٌ اعتقلته سلطات الاحتلال صبيحة يوم عرسه، وفي القسم، بدأ أبو ضحى الاختفاء ساعات طويلة، لا يراه أحد، لكنه يظهر، كاملاً، وينبع من بين المعتقلين، ساعة «العدد» فلا يجرؤ أحد على سؤاله أين كان، حتى لا يسخر منه ومن سؤاله، إذ كيف له أن يختفي وأين؟

لكن أبا ضحى يختفي فجأة مثلما يظهر فجأة! والأكثر غرابة أنه

ظلّ بعافيته، لا يطلب طعاماً، بل يوزّع حصته على زملاء خيمته، ومعها بعض السجائر الفاخرة . .

- منْ أين هذه السجائر يا أبا ضحى؟

يبتسم أبو ضحى ولا يجيب!

- هل أنت صائم، لماذا لا تأكل معنا، ألا تجوع؟

يبتسم أبو ضحى ولا يجيب!

- أين حلقت ذقنك، وتطيّبت بهذا العطر، من أين؟

يبتسم أبو ضحى ولا يجيب .

وعندما يتسلل السائلون إلى الخيمة التي ينام فيها أبو ضحى، يرون، كالحلم، أن بُرْشه دون جسد، وفجأة يرون أبا ضحى بكامل سخونته يتقلّب على فراشه يقظاً!!

حار مسؤولو القسم في أمر اختفاء أبي ضحى، وفي مسائل نظافة ملابسه وعطره الفوّاح وسجائره الفاخرة .

رصدوه خطوة بخطوة، وعيونهم على بوابة القسم التي تظل مغلقة بالمفاتيح الكبيرة والجنازير . . لكنه يختفي، كيف، وأين، وماذا؟؟

ذات مساء اجتمعت لجنة القسم في خيمة أبي ضحى، واتخذت زاويةً للحديث معه، لسؤاله عن اختفائه المؤكد الغريب المبهم .

ابتسم أبو ضحى، وقال لهم بصوت هادئ: لن تصدّقوا إن قلتُ لكم!

- سنصدّقك، قُلْ ولا تخف، وسنتفهّم ظروفك، احكِ لنا بالتفصيل، ولن نقول لأحد شيئاً . . كُنْ مطمئناً .

كانوا يُهيّئون له لكي يعترف، كأنه مشبوه!! وهم على ثقة بأن أبا ضحى أكثرهم صلابة وعطاء ووطنية، لكنّ الفضول يقتلهم وينهرهم ليعرفوا السرّ .

كرّر أبو ضحى قوله لهم: لن تصدّقوا روايتي. والأفضل أن تثقوا بأن كل شيء على ما يرام. ولا حاجة لأن تقلقوا، لكنهم ألحفوا في الطلب، واصروا عليه وألحّوا..

- لي أخت تحملني، متى شئت، وكلما اشتهى قلبي الذهاب إلى ما أريد.. تحملني تحت ثوبها، وتحطّني، في لحظة، حيثما حلمت. ثم تعيدني برمشة عين، حيث كنت.

تلعثم أعضاء لجنة القسم، ونظروا بعضهم إلى بعض، مستغربين مندهشين، لا يعرفون، هل يصدقونه أم يطبقون بأيديهم على رقبته..

أدرك أبو ضحى هول مفاجأته لهم، فراح يشرح لهم الأمر بشيء من التفصيل، وبداية علاقته بتلك «الأخت» التي تلفّ به الكرة الأرضية، قبل أن يرتدّ جفن إلى جفن.

*

كان أبو ضحى نائماً، ولمّا أحسّ بأن يداً تمسّد جبينه ووجهه برفق، غير مرّة، فتح عينيه، فوجد زوجته ممددة إلى جانبه، تبعث غمّازتاها ابتسامة الرضى.. ولمّا اكتملت يقظته، وعلم أنه في السجن.. هزّ رأسه كأنه يطرد حُلماً غطّى عينيه! ثم جال بنظره في أرجاء الخيمة فلم ير سوى المعتقلين النيام المتقلّبين..

استعاذ بالله من الشيطان، وعاد إلى نومه.. وقبل أن يغفو تماماً جاءه صوتها، بأنها تنتظره وتطلبه، فما عليه إلاّ أن يدير ظهره ليجدها بين ذراعيه بكامل نبيذها!

أدرك أبو ضحى جيداً، أن هذا الصوت لم يكن قادماً من رؤية أو حلم، بل إنه صوت من لحم ودم . . ومما زاد من خوفه أن يدير ظهره فيجد عروسه، بالفعل، إلى جانبه، وفي حضنه!!

لكن أبا ضحى رجل شجاع، ولا يخشى المفاجآت، وقرر أن يفعلها، فأدار وجهه، فأحسّ بدوار خفيف، ثم توازَنَ وفتح عينيه على مصراعيهما، فوجد نفسه في سرير غرفة بيته!!؟

نهض عن السرير، وترجّل، وراح يلمس أُكُرة الباب، فوجدها حقيقية، ثم توجه إلى النافذة، وفتحها، فهبّ ريح الطوابين من أرجاء «دير السودان» وقرى مزارع النوباني وعارورة وعجّول، وها هو الجبل الذي يحمل قرية أم صفا ؟!

نظر إلى عروسه، وغرق في لثمة الحياة . . وما أن انتهى وحاول أن ينهض، حتى وجد نفسه على بُرشه في الخيمة رقم 26 وفي القسم 3 .

في الليلة الثانية، استيقظ على اليد التي تمرّر فروها على جبينه، مرّة أخرى . كان أقل خوفاً ودهشة، فتح عينيه فوجد عروساً بكامل خلاخيلها وكحلها المرسوم . اعتدل في جلسته، وابتسم لها كأنه يطمْئن نفسه، ويشكرها على رحلة ليلة أمس . لكنها أشارت له أن يتبعها .

نهض أبو ضحى، وفتح باب الخيمة، فوجد نفسه محمولاً، دون أن يعي، وبعد أقل من لحظة، رأى حاله يقف أمام تلك العروس التي اقتعدت حجراً أملس عند حافة بئر كأنها حفرة عظيمة معتمة .

– مَنْ أنت، وأين نحن، وماذا تريدين مني؟

ابتسمت لَه العروس .

توقف أبو ضحى عن الكلام المباح، وقال لأعضاء لجنة القسم . . هذه هي القصّة، ولن أزيد!

أما مَنْ سيتفوّه بحرف واحد منكم عن حكايتي هذه، فأنا لستُ مسؤولاً عمّا سيقع له! إنّي أحذركم، وقد أعذر مَنْ أنذر .

انسلت لجنة القسم، وهم ينتفضون رهبةً وخوفاً . .

في اليوم الثاني، طلبت اللجنة من أبي ضحى أن يتم توظيف هذه «الأخت» لخدمة أهداف المعتقل . .

وعد أبو ضحى أن يطرح الأمر على «أخته» التي لم تحضر ليلة أمس أو اليوم . وفي المساء، جاءت «الشحرورة» تُنادي على رقم أبي ضحى ضمن أرقام المعتقلين المُفرج عنهم .

وقبل أن يخرج أبو ضحى من بوابة القسم، سأله رئيس اللجنة: كيف سنتصل بـ «الأخت»؟

ابتسم أبو ضحى، وهمس له قائلاً: كانت أحلام يقظة رائعة يا صديقي .

*

في الأزمات، يكتشف الإنسان كنوزه المدفونة فيه! ويدرك، ربما، بعد فوات الأوان، أن أشياء كثيرة سقطت منه، وهو غير آبه لها، وأن هذه القطرات، هي نسغ حيويته، وماء روحه . . وما عليه إلاّ أن يلملم نفسه من جديد، ليندفع في دفاعه عن سماوات جسده وأرض قدميه. لهذا، وبعد حين من الصراع والمساجلة والمغالبة مع العدو الذي يسعى لإلغائه تماماً، يكتشف أن فيه من القوة، ما يفوق خياله، وأن فيه قدرة احتمال تعزّ على الجبال، وأن شرايينه تتسع لكل الغابات.

إن الإنسان أقوى مما يعتقد، وإنه لم يوظف أكثر من عشرين بالمئة من إمكانات وقدرات روحه وجسده وعقله، وإن فيه من الجبروت والغرابة وغير العادي ما يفهق أمامه مثل النيزك، إذا ما تعرّض للإنهاء أو الإفناء.

ولعل السجن، بكل ما يمثله من نظرية للتغريب والكسر والاحتواء، هو ما يستفزّ كوامن الإنسان الذي يبدأ الردّ، حتى يُشكّل نظرية مضادة، هي نظرية التحدّي والبقاء، وفي طريق تأصيل هذه النظرية، تنكشف جواهر البشر غير المرئية فيهم، ولآلئ الاختراق والخوارق المُغطاة تحت قشرة الرتابة ونمط الحياة.

وإلاّ، فكيف يمكن أن نفهم تحمُّل السجين آلام الجوع مدة تزيد على الشهر؟ أو البقاء يقظاً، دون أن يغمض له جفن مدة خمسة أيام متواصلة؟ أو استيعاب ضربات العصيّ والهراوات مدة خمس ساعات، دون أن تنكسر فيه إصبع؟ أو أن يهجم على الجنديّ الذي يسدّد فوهة بندقيته نحو صدره . . ولا يتردد في الانقضاض عليه . . أو تقطيع الأسلاك الشائكة بالأيدي المجرّدة!

لا أبالغ، لأنّ مَنْ يمكث عامين أو أكثر، في زنزانة عزل انفرادي، لا يرى أحداً ولا يكلّمه أحد، ويخرج عاقلاً معافى، وبكامل توازنه ووعيه، ليس آدمياً عادياً، لكنه، وفي كل هذه الأحوال وما شابهها، يظلّ إنساناً فلسطينياً طبيعياً، ومن الممكن أن يكون فيتنامياً طبيعياً، أوجزائرياً طبيعياً، أوجنوب إفريقي، أو برازيلياً طبيعياً.

هل تصدقون أن معتقلاً فلسطينياً، كان سيتمّ نقله إلى سجن آخر، وهو مضطر لحمل رسالة مهمة، قرأها مرة واحدة فحفظها كاملة عن ظهر قلب، دون أن ينقص منها حرف؟!

وأن معتقلاً آخر، تم نقله إلى مستشفى السجن، لإجراء عملية «الزائدة» له، قطع عضوه التناسلي بشفرة حلاقة، عندما خشي من أن تغريه مُجنّدة إسرئيلية، وتسقطه في شباكها؟!

هل تريدون أسماء هؤلاء، غير العاديين، حسناً! إن أسماءهم معلومة لدى كل مَنْ دخل معتقلاً من معتقلات الاحتلال!

*

عندما اعتقلوني للمرة الثالثة، وحملوني إلى مركز اعتقال الظاهرية، مرة أخرى، ومكثنا في جحيمه أسبوعين تقريباً، أخرجونا إلى ساحة المركز، وكالعادة، ربطوا كل اثنين من المعتقلين بكلبشة واحدة، يومها تقاسمت مع الأخ المناضل راضي الجرّاعي شرف الارتباط بقيد واحد . . وقبل أن نصل، بعد عشرين ساعة، إلى قسم (5) في «أنصار 3»، وقبل أن تحرمنا إدارة المعتقل من الأخ راضي؛ بإعادته إلى مركز التحقيق في مدينة «ملبّس» الإسرائيلية «بيتاح تكفا».

كُنّا نقف في طابور ثنائي، في ساحة مركز الظاهرية، في انتظار الإجراءات وتعصيب العيون وركوب الحافلة، وعندها جاء ضابط إسرائيلي، وأشار إلى أحد المعتقلين، بعدها حمل جندي يهودي قضيباً حديدياً غليظاً، ووقف على صندوق خلف المعتقل المُشار إليه، وهوى بكل قوته وحقده على رأسه . . فوقع السجين، وأسقط معه الشاب الذي كان مربوطاً وإياه بالكلبشة . . وبعد دقائق استيقظ «المضروب على رأسه»، ووقف بكامل وعيه كأنما سقط على رأسه عامود ماء . عندها همس لي راضي الجراعي قائلاً: يبدو أن هذا المضروب خليلي! فرأسه يابسة، ولن تتأثر ولو ضربوه بقنبلة نووية.

أما أنت يا راضي، فكيف رأسك الآن، بعد كل هذه السنوات من السجن والمسؤولية! هل أحالت الليالي شَعرك إلى فضّة من نهار . . . يا أبا شادي! طوبى لك في كل أحوالك أيها الرجل الباسل.

*

وفي معتقل المسكوبية، الواقع على ضفة شارع يافا في القدس الغربية، حجزتني المخابرات الإسرائيلية يومين، قبل أن ترسلني في «البوسطة» سيارة نقل المعتقلين، إلى مركز التحقيق في طولكرم، والمسكوبية مركز توقيف حقير وخشن ودموي، وكان قد سبقني إليه أخي وصديقي د. سمير شحادة، وكان حينها في زنازين التحقيق في المسكوبية كما علمت لاحقاً، وأدخلوني إلى إحدى غرف السجن . . فاعتقد السجناء أنني د. سمير شحادة، فأوضحت لهم أنني صديقه، وعلمت

حينها أنه هناك، كما كان هناك، وفي الغرفة التي أدخلوني إليها، فتىً لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، أمضى في التحقيق المركزي، وتحت التعذيب المهول شهرين، ولم يعترف بأنه كان يعدّ «المولوتوف»، وأنه أحرق أكثر من خمس دوريات عسكرية، إلاّ أن واحداً ممَّن لم يحتملوا التعذيب اعترف بكل شيء، ورغم ذلك فالفتى لم يَعترف، وتمت محاكمته، لاحقاً، على اعترافات رفيقه!!

هل تذكر ذلك الفتى يا أبا نزار؟ ربما يقضي - حتى الآن - فترة سجنه، مع نزار في معتقل عسقلان، وربما أصابته رصاصات سوداء، في قلبه، مثلما أصابت ذلك الفتى «رامي»؛ ابن أخينا عزّت الغزاوي، الذي سقط شهيداً، تاركاً حَمام الدار دون قمح أو غناء.

وكُلّما التقيت المناضل يوسف عزريل، أو صديقاً آخر يذكّرني بأيام كتسيعوت «الجميلة»! وبما فعله شاويش قسم (4) الأخ الجسور أنور النابلسي. وقتها لم يصدق أحد ما رأى بأم عينه.. حتى سأله أحدهم: هل أنت من الأولياء، أصحاب الحظوة يا أنور؟! لكن أنور لا يزيد عن كونه مناضلاً شريفاً صلباً، مثل كل هذه الآلاف التي تفترش رمل الصحراء.

- إذاً، ما الذي جرى؟

حدث أن رمى أحد المعتقلين رسالة، بوساطة «الحمام الزاجل» من قسم (2) إلى قسم (4)، لكن الرسالة وقعت بين أسلاك السياج «الشيك»، وكان مستحيلاً، أن يتم التقاط الرسالة - التي تحتوي على معلومات أمنية خطيرة تتعلق بإحد التنظيمات - من بين الأسلاك الشائكة، وكان لا بُدّ من إحضارها، عندها مَدّ أنور النابلسي ذراعه

كاملاً بين الأسلاك، وراح يدفعها، كأنه يمددّها، حتى وصلت أصابعه إلى الرسالة، فالتقطها وسلّمها للفصيل المعني بالأمر، دون أن تنخدش ذراعه، أو ينقدّ كُمّ قميصه!!

أين أنت الآن يا أبا رامي؟ هل ما زلت تطرق بيمينك القادرة على الحديد، حتى تقوّمه، وتصنع منه بوّابات لبيوتات القدس! على ذراعيك الرضى والبركة!

*

وحدث أن كُنّا عائدين من زيارة المحامين، وفي طريق عودتنا إلى الأقسام، قام الجنود بتفتيشنا، تفتيشاً دقيقاً، وصل، كالعادة، إلى تحسيس ما بين أرجلنا، لكن جندياً بذيئاً حاول أن يُجبر أحد المعتقلين على الانحناء ليفتش مؤخرته، فرفض المعتقل . . . فقام الجندي التعس وصفع المعتقل على وجهه. بعد ذلك لم نر إلاّ والجندي يطير في الهواء، ويسقط في جهة، ورشاشه في جهة أخرى. . لقد وقع بين يدي مدرب كاراتيه! ولم يوقف ذلك الشاب إلاّ جديّة الجنود الذين سحبوا أقسام أسلحتهم في وجهه، إذا استمرّ في ضرب زميلهم، وبعد شهر ظهر ذلك المدرب الحزين، بعد أن أكلت العصيّ من جنباته، وهو مقيّد في الزنزانة ليل نهار.

*

في إحدى جلسات اللجنة النضالية العُليا، خلال فترة اعتقالي الثالثة عام 1989، دار نقاش ساخن حول مفهوم الوحدة الوطنية، والتمثيل النسبي، ومدى نفوذ «فتح» وسيطرتها على القرار، ومدى المركزية التي تتمتع بها قيادة حركة «فتح» داخل بناءاتها التنظيمية الفضفاضة . . وكُنّا، على ما يبدو، وقتها، لم نتعلّم ما يكفي لنكون مستمعين جيدين! حيث إن دفاعنا «العشائري» عن الحركة، هو ما دفع القوى الأخرى لتكون عشائرية، هي الأخرى! لقد كان الجميع ينتمي إلى «دين» سياسي، لا يقبل له خدش أو نقد. وبعد أن انتهت الجلسة، مضيتُ أنا وممثل الجبهة الشعبية في اللجنة، إلى رياضة المشي في الساحة . . وفجأة، وقف زميلي الرفيق فريد م. ، وقال لي: سأُخبرك بشيء!

- ما هو يا فريد؟

ذهبنا، وجلسنا بعيدين عن الزملاء، وبدأ شرح السيناريو السياسي القادم . . . عندها أحسست بأنه يبالغ، أو أنه مغرم بالفنتازيا والتحليل اللامعقول.

هل تدرون ما الذي قاله الرفيق فريد؟

لقد قال لي، تقريباً، كل ما جرى لاحقاً في مؤتمر مدريد، وفي أوسلو . . وأنّ الحلّ سيكون حكماً ذاتياً . . وحتى سنوات طويلة! عندها لم أصدّقه! فهل تُصدّقون الآن، أم صدق المحللون السياسيون ولو كذبوا؟ عذراً يا فريد . . لم يعد الأمر سرّاً.

*

يا أيُّها «الختيارُ» إنّكَ في ضلوع صغارنا
الدَّفَقَ الذي يُعطي الطفولةَ نُضجَها
أنتَ الذي يُعطي الحجارةَ
في أكُفِّ صغارنا، الوَهَج المُهابْ
وصغارُنا وكبارُنا والأُمَّهاتُ
- بزفَّة الشهداء في برق الصِّدامِ
وفي النِّقاشاتَ السريعةَ -
يهتفونَ لوجهكَ القُدُسَيّ
أَنت الرمزُ
أَنتَ نَشيدُنا العَصريّ . .
فاحكُمْ بيننا بالعَدْلَ !
أنتَ مُحاصَرٌ بالنار والأَسوارِ
حَولكَ إخوةٌ أعداءَ
أمزجةٌ وَتجَّارٌ
وألسنةٌ يُنَضْنضُ سُمُّها حولكْ
فلا تَأمنْ لَهُم . . . تهلكْ
وصدِّق كلَّ مَنْ عانوا ومَن جاعوا
ومَنْ ماتوا
ومَنْ ظَلّوا، برغمِ الثلجِ، في الخندقِ
هُمو أَهلكْ
فلا تهلكْ . .
فكلُّ الناسِ، رغمَ دموعِها، خلفكْ

وكلُّ النّاس أضحى دَربُها دربكْ
ولم نبدأ لكَي تُنهى حكايَتُنا
بهذا الصَّمت والليلكْ
فلنْ يَعطوكَ، مَنْ ذَبحوكَ، غَيرَ الكذْبِ
لن يأتوكَ إلاّ إنْ رأوا سَيفَكْ
ولَن يأتوكَ إنْ ظنّوا
بأَنَّكَ سائرٌ وَحدَكْ
ولَنْ يَعطوكَ إلاّ ما ستأخذهُ
بساعدكَ الّذي يَشْتدُّ بالمعْرَكْ
ولَنْ يَعْطوكَ إلاّ ما ستَأخذهُ
بساعدكَ الّذي يَشْتدُّ بالمعْرَكْ .

*

كثيراً ما كانت «الشحرورة» تأتي، وبيديها أوراق الإفراج، وأحياناً تكون الأوراق التي بين يديها أوراق تجديد الاعتقال الإداري ستة أشهر أُخرى . . وبهذا، فإن «الحفلة» التي كُنّا نحرص على إقامتها ليلة يوم الإفراج الموعود والمحدد تنقلب إلى جلسة تضامن مع المعتقل الذي جددّوا حجزه نصف سنة كاملة ! أما الذين يتم ذكر أرقامهم كمُفرج عنهم، على ذمّة الشحرورة، فإنهم يبدأون تسليم ملابسهم الداخلية النظيفة لصندوق التموين، وبمصافحة المعتقلين وتوديعهم .

. . وبالتأكيد، فإن عليهم أن يحفظوا الرسائل الشفوية من المعتقلين إلى أهاليهم أو أصدقائهم، ونقل الأمانات إلى أصحابها، وغالباً ما يكون آخر المودّعين شاويش القسم، الذي يدعو الله بقوله «عُقبالنا» . . فيجيبه كامل جبيل : إن شاء الله لّما تروّح أنت وغسان الحرامي تنفقسوا !

– ما هي الفقسة هذه يا كامل؟

يقول كامل : عندما أفرجوا عن «فلان» بعد سنة كاملة، ووصل إلى بيته، وسلّم كلُ أهل البلد عليه . . وذهب للنوم . . انفقس! كانت امرأته «جاييتها» (العادة الشهرية) . . وعقبال عند المُفرج عنهم يا شباب . .

يضحك الجميع، وينصفق الباب، وتلّوح الأيادي للذاهب إلى صغاره وأم عياله على جناح الحرية العزيز !

*

ناعم . . ناعم . . هالريحان
كُلّه ريحه . . هالريحان

قَطْفه منّو . . هالريحان
تغني عنّو . . هالريحان
يا حْليل إموّ . . هالريحان
ما في منّو . . هالريحان.

. . ويكون العريس قد خرج من حَمّام العُرس، وجلس ليتزيّن، فيبدأ «الحلاق» كشط لحيته، وتسريح شعره، ودهنه بالأطايب والعطور . . وصوت الشبان حوله:

خففّ موسك يا حلاّق
إعملْ لهُ غُرّة . . يا حلاق.

هكذا تبدأ حفلة زفاف المعتقل الذي يجلس بين يدي «حسام الحرامي» ليشذّب لحيته، ويهندس شَعره، ويهيئه للقاء يوم غد، يوم الإفراج . والمعتقل، حتى يخرج إلى بهاء اللقاء الموعود، عليه أنّ يجتاز «فقستين»؛ الأولى «فقسة» أن يتم تجديد اعتقاله ستة أشهر أخرى، وإذا تجاوز هذه، فعليه أن يجتاز «فقسة» كامل جبيل، وهي أن تكون الزوجة مستعدة! وعلى رأي كامل (مش جايبتها) وعلى رأي المثل: مَنْ حفر حفرة لأخيه وقع فيها، فقد وقع كامل «أبو أيمن» في الفقسة الثانية، بعد أن انفقس في الأولى، وها قد مرّ عام كامل على كامل وهو يحلم . . وبستاهل!

*

السجنُ يصقل زندَ الفُتوّة
يزرعُ معنى التجلّد في الروح
يخلقُ روحَ الجماعة في الفردَ
يسكبُ فولاذَ صبرَ الرجال بقَلبِ الجزوعِ
ويصهرُ صلصال آدَمَ فينا
لنغدو شلاّلَ نور ونار .
والقيدُ في السجّن لا يغلبُ السجناءَ
إذا لم يصل للجنانَ
وأخطرُ ما في السجون
انتقالُ ظلام الزمان المَلّ لعقل السجين
ويومُ السجين انتظارٌ ثقيلٌ لأيَ انبلاج
وكلِ سجين يقولب ساعاته لانتظار الخلاص
ويرغبُ في أن يلوكَ الجرائدَ بحثاً عَن الضوءِ
يقرأُ . . يلعبُ بالزهر . .
وحين يخطّ الرسائلَ للأهل
يُذهلُه أي شيء أليف
ينتظرُ المعجزاتَ التيً ستخلّصهُ فجأةً
من رماد القيودَ
يُجمّلُ أَحزانَه بَانفعال
ويغضبُ من أيّ أمرً صًغير
ويسعى لكسرَ النوامًيس بعًضَ الأحايين
يبكي بصمتٍ

ويضحكُ منِ أيّ شيء سخيف
وتُغريه بعضُ الأحاديث والنكتِ الشبقيّةِ
يعشقُ لونَ الهدوء المعذّبَ
في أُغنيات الأصيل
ويلعنُ نوعَ الطعام المُكرّر
يغضبُ من قلّة الأكلِ واللّبسِ
يرمي بجثته للرَّصاصَ
إذا مسّهُ الذَلّ مسّاً طفيفاً
ويجهرُ بالانتماء اذا ما أحسّ بريحِ التَعدّي
ويحتجّ إن غابَ مشط التساوي
ويحترمُ الشيبَ والسنواتِ التي قدّها الظُّلْمُ
من جسد الصامدينَ
ويكرهُ إهَمالَ هذا وذاك
يريدُ حياةَ المئات
كما يشتهي َأن تكونَ الحياة
ويهتمّ كي يعرف السرّ في الحركات
أو الجلسات
ويُسعده أن يقوم ببعض المهمّات للسجناءِ
ويكرهُ غسلَ ملابسه والأوامرَ
يختلقُ العُذرَ إنْ شتَمَ الآخرين
ويُسْقطُ فعْلَته فوقَ وجه الزمان
ويأملُ أنَ تتحقق بعضُ الإشاعاتِ

حين تكونُ على صلة بالرواح
ويبحثُ عن ذاته فيَ اًلعلاقاتِ
والشللِ المُنتقاة
وكلّ السَجون يُوحدّها أملٌ لا يجفّ
ويجمعُها الخوَفُ والانتماءُ
وصمتُ التوتر والرعب
والجوِع والارتقابْ .
وليلُ السجينِ حديثٌ يطول عن الانتفاضةِ
والبيت
والعشقَ
وَالسجن
واَلخبزِ
وشوشةٌ مع صديق
تفاصيلُ حادثة قدً جرت عن قريب
حكايا عن الجاًمعات وبعضِ الرّجاًلِ
عن البلد الذي ينتموَن إليهِ
وكيف تبَدّل
كيف يريدونهُ أن يكونْ
عن الاجتماع أو الاقتصاد
عن الشعر والساسة الخارقَين
عن الحَلّ وَالرّبط
والرفضِ والموتِ

والعيد . . .
وليلُ السجين إعادةُ ترتيب كلّ الدقائق
إخضاعُ ما قدَ مضى للسؤالِ
ارتخاء
دعاءٌ
هدوءٌ
ورحلةُ فكر عميق
ورسمُ حدودِ الزمان الذي
سوف يتلو الخروج من السجن
أحلامُ صَحْو تعوّضُ ما قد تطايَرَ منّا
وما ينقصُ الكف والقلب والعين
ذكرى تشعّ بقنديلها الأرجواني
رحلةُ موت شهيّ
وكلُ السجون تسافرُ في الليلِ
خلفَ الجدارَ
. . . وتحلمُ بالصّبحِ والانقلابْ .

*

يلد السَحَرةُ وقت الغروب، حتى يكونوا قادرين على تأصيل هذه الغربة! والغروب في الصحراء لوحة تتداخل فيها الوان المغيب مع بياض الغيوم الرقيقة، فتكتسب الغيوم لون الحنّاء الحزين. ودائماً، ثمة دمعة كبيرة،

في السماء، تظل حتى الخيط الأخير الذاهب إلى البحر، كأنها وردة جُلنّار فقدت أُمها، وأتت لتشاركنا الأسى الطريّ.

وعلى مرمى عينيك، ترى العوسج يستعد للنوم تحت لحاف الندى، وثمة زهرة يتيمة تذبل عند حمأة الظهيرة، لتستعيد تفتّحها! وكم تجمّعت حدقاتنا حولها، وحاولنا أن نستقدمها نحونا، لكن دونها خرط القتاد والبساطير.

وفي حضرة هذا الغروب الرسولي، وبعد يوم من سقوط الشهيدين الشوّا والسمّودي، أي يوم 17/ 8/ 1988، وقبل يوم إفراجي الأول بساعات، جلس المعتقلون، وما زال وحي المأساة يُجلّل المكان، ليشاركوا في الأمسية الشعرية التي أحياها الصديق وسيم الكردي وأنا.. وكان لا بُدّ من أن تكون القصائد، مُكملة للمشهد الدامي، ولحالة الغضب والحزن، والصمت المتوتر الذابح. وراح وسيم يقرأ قصائده، ماسكاً الأوراق بيده اليسرى، فيما كانت يده اليمنى تكسر هواء الصمت، وتعيد تشكيل الغيوم، حتى سقط العندم، وتقاطر من ذراعه! كان الصمت مدوّياً، أكاد أسمعه!! لكن وسيم، استطاع بصوته العميق المنفعل، وبحركة يده المُتّسقة مع صور الكلام الواضح، أن يكون أقوى من الصمت، وحلّ الليل برداء مصاصي الدماء السوداء، وما زالت كلمات وسيم الكردي ترمي نداءاتها، وتردد الصحراء أصداءها حتى الساعة:

قامت من الرمل البشائر
طوّفت أنسامها
رفّت أهازيجاً
زغاريداً تكابر

قامت من الوجع الضفائر
وبدت ملوّحة
مناجية حداق النبع
أجساد المعابر
واستفاقت مِن هضاب العمر
تستبق الهواءَ
هم فتيةٌ نهضت زنابقهم
كآلهة
تخصّب فوهات نشيدهم
وتقضّ صمتاً
قد تعلق فوق أجراس البقاء

وأنت يا سامي الكيلاني، يا شقيق الشاهد والشهيد.. كيف ستُهّرب قصائدك وقصصك القصيرة؟ وأنت يا صديقي وسيم الكردي، كيف ستحمل «جدار الدم» وباقي القصائد التي تلوّنت بالعوسج والندى والنجمة العاشقة؟ وأنت يا أخي عبد الناصر صالح، كيف ستحمل روحك المطرزّة بأرجوان الشهيدين وصراخ المذبوحين... كيف سينحني مجد القصيدة أمام هراوات التفتيش؟؟ هل ستحفظون قصائدكم عن ظهر قلب، وتعيدون كتابتها، مرّة أخرى ؟؟ أجبني يا جمال بنورة.. ويا كل الكُتّاب المحبوسين!

*

لا بأس . فالحاجة أم الاختراع، وثمة «الكبسولات» اللواتي سيحملن كل الآيات الذهبية، باطمئنان وأمان، وستصل كل القصائد إلى المنصّة كاملة، دون نقص أو اعتداء .

ثمة ورق شفاف، يكتب على صفحته المعتقلون قصائدهم وحكاياتهم وأخبارهم، بقلم رفيع، وبخط صغير، يشبه النمل الأسود المتراص، حيث بالإمكان كتابة خمس صفحات على ورقة شفافة بحجم كفّ اليد، ومن ثم يتم ثني الورقة وطيّها وجمعها حتى يصبح حجمها بحجم حبّة الفول، وتتّم تغطيتها غير مرّة، بالنايلون، وتذويب نايلون إضافي على جنباتها . . حتى تصبح شبه كبسولة الدواء المُغلقة، لا يخترقها الماء أو الهواء . وقبل الخروج من القسم، يقوم السجين ببَلْع عدد من الكبسولات، مع قليل من الماء . . وعندما يصل إلى بيته . . يذهب لقضاء حاجته، فتخرج الكبسولات . . ويتم غسلها جيداً، وفتحها، وبهذا تمّ نقل وحفظ كل أدبيات وأسرار السجون!

*

بعد ثلاثة اعتقالات إدارية، في المعتقل نفسه، والانتقال من قسم إلى آخر، أصبح وجهي شبه مألوف للشحرورة، التي جاءت في اليوم الأخير من الأشهر الستة الأخيرة، ونادت على رقمي، ضمن المفرج عنهم!

– كان رقمي في الاعتقال الأول (3589)، وفي الاعتقال الثاني كان رقمي (6168)، وفي الاعتقال الثالث (9576)، أليست أسماء جميلة؟! –

هل أقول إنني فرحت؟ أم أقول إن الأسى حلّ فجأة في صدري، وانقبضتُ، وأصابتني كآبة غامضة !!

*

لم يكن «أنصار 3» يشبه «كاميلوت» إلاّ بجسارة مواطنيها، وتفانيهم الحقيقي دفاعاً عنها، لتظل المدينةُ الذهبية، حارسةً للبحر والمراعي. بل إنّ كل معتقل في «أنصار 3» كان يطاول الملك الشهيد، الذي حلم طوال عمره بالمرأة، وبرؤية مدينته ناصعة النقاء والعدل. وحتى، حين كاد يتزوج الأميرة المستنجدة - وكان يشكّ في أنها تعشق «لانسيلوت» الليث الآدمي الذي ربّتَه الغابات - لم يشأ أن يحضن جسداً، روحه فرّت منه إلى غيره، لهذا كان يقول للأميرة: تزوجي الملك، واعشقي الرجل الذي يلبسه الملك، وإلاّ فابتعدي! لكن الملوك الحقيقيين، لا يموتون إلاّ شهداء، أمام النبال وطعنات الرماح، وعيونهم شاخصة نحو شمس الشروق، التي تتطالع من العيون الدامعة.

ربما كانت أرض «كاميلوت» المُمرعة بالزهر والعسل ساحرة إلى حدّ الخوف، أما أرض «أنصار 3» الرملية، فكانت مسحوقاً بشرياً ناشفاً، قلّبته الرياح بعد أن تآكلت الأجساد، وتحلّلت إلى حبّات تذروها الأيام منذ آلاف السنين.

*

هنا المدينة الجهنمية الكاملة الفاضلة! «أنصار 3» الذي حقق «لتوماس مور» حلمه كاملاً على هذه الرمال، وأكاد أصرخ أن هذا المعتقل هو «جزيرة الشمس» التي تجاوزت مدينة الفارابي الفاضلة، لأن حيّ بن يقظان - الذي تشبه أيامه الأولى أيام النبي موسى عليه السلام - أخذته الغزالةُ إلى حليبها، قبل أن يكشف له البرقُ الحقيقة! مثلما تجاوزت جمهورية أفلاطون التي أبقت على التمايز الطبقي، بل كيف لها أن تكون

«فاضلة» وقد أقصت الشعراء والمبدعين، على اعتبار أن «الفن» صورة مشوّهة عن واقع مشوّه أصلاً؟؟! لقد تخطى «أنصار 3» كل الأحلام التي تطلعت لإنشاء عالَم عادل ومعقول. لكن مدينتنا الكاملة «أنصار 3» تجمع بين كثبانها كل ما قاله يوليوس فوتشيك في «تحت أعواد المشانق»، وأوراق معين بسيسو الفلسطينية، وشرق عبد الرحمن منيف المتوسط، وأشعار ناظم حكمت. وتنطبق عليها، انطباق الحديد على الحديد، نفحات خريجي المعتقلات الصحراوية والرطبة من المحيط إلى الخليج، بدءاً من «الأقدام العارية» إلى ورواية «المفاتيح تدور في الأقفال» لعلي الخليلي، ورسائل عزت الغزاوي التي لم تصل بعد، وما قاله عدنان جابر في «القيد والحرية»، وكتاب «السجن ليس لنا» لمعتقلي سجن نفحة الذي أعدّه وحررّه عطا القيمري، و«سجينات الوطن السجين» لريموندا الطويل، وكل ما كتبه جبريل الرجوب وعبد الستار قاسم وفاضل يونس وحسن عبد الله وناهدة نزال وفايز أبو شمّالة ووليد الهودلي، عن المعتقلات الاسرائيلية..

*

هنا المدينة الجهنمية «الفاضلة»، و«الكاملة» «أنصار 3»، الذي حقق «العالم الجديد والشجاع» كما تصوره الدوس هكسلي بقمعه ووحشيته وسلبه روحَ وإرادة الإنسان، وتحويله إلى مجرد هيكل عظميَ دون أدنىَ مقوماَت.

ومن عجب أن العقلية الاستعمارية الإمبريالية تشرب من نبع

واحد؛ «أنصار 3»، هو ذاته عالم الدوس هكسلي، وهو ذاته جزيرة العقاب كما تصورها فرانز كافكا. العقلية الإمبريالية الاستعمارية تعتقد واهمة أنها تستطيع حمل الإنسان إلى نقطة يتخلى فيها عن روحه وإرادته وأحلامه وطموحاته.. باستعمال القوة، العزل، التعذيب، القمع، زرع اليأس في النفوس، تذويب الإحساس بالتمييز، قتل الإبداع، إنهاك الجسد من أجل إنهاك الروح.

«أنصار 3»؛ المدينة الجهنمية الفاضلة؛ آخر ما وصلت إليه عقلية فاشية عنصرية من أساليب في تنميط جزيرة عقاب صحراوية بعيدة ومنعزلة، مستفيدة من سرمدية الصحراء وأبدية الشمس، من عقاب القرّ وخناجر الحر.

«أنصار 3»؛ معسكر اعتقال، أو قل، معسكر تجميع يشبه معسكر تربلنكي أو أوشفيتس، أريد له أن يكون تقطيراً لكل معسكرات الامبرياليات السابقة، وتركيزاً لكل تجارب إجهاض الثورات والشعوب، من خلال هذا الاحتكاك اليومي بين القاتل وضحيته، بين السجان وسجينه.

مدينة جهنمية كاملة هو معسكر «أنصار 3»، وكان علينا أن نطوّع أجسادنا أولاً، وكان علينا أن نحصّن إرادتنا، وكان علينا أن لا نرى من خلال عيوننا، وإنما من خلال هذه الأرواح التي تسكننا لتجعل من أجسادنا لا تشعر بحر أو بقرّ، ولنحتمل صحراء فلسطين الجنوبية القارسة الموحشة، ولندرّب أفاعي تلك الصحراء لتخدم «التنظيم».

كان علينا أن نجعل من مدينتهم الجهنمية الكاملة، وعالمهم الجديد مجرد أضحوكة ليس إلا، وقد فعلنا.

كان الوقت عصراً، وبعد ثلاث ساعات، انفتح الباب وخرجت. . بعد عناق ودموع ووشوشات، وبلعت كبسولات ديواني الشعري الثالث (رغوة السؤال) الذي رأى النور في «كتسيعوت». وكالعادة ساقونا إلى الساحة التي تم استقبالنا فيها، سلّمنا العهدة (البنطال والقميص)، وأعادوا لنا لباسنا المدني الذي اعتقلونا ونحن متلبّسون فيه. وأعطوا كل واحد منا ورقة بالعبرية مختومة، تفيد بأن حاملها مُفرج عنه من معتقل «كتسيعوت»، تبقى معنا، حتى نذهب لاستعادة « أماناتنا» من المركز الذي اعتقلونا فيه، وحوّلونا منه إلى «كتسيعوت». والأمانات هي: الهوية الشخصية، ساعة اليد، الفلوس، الخاتم، حزام البنطلون. .

وركبنا الحافلة التي ستوصلنا إلى مفترق بلدة راهط البدوية الواقعة بين الخليل شرقاً وبئر السبع غرباً، وهناك، علينا أن نجد وسيلة لتوصل كل منّا إلى بلدته .

وصلنا إلى مفترق راهط منتصف تلك الليلة . . وكنّا نخشى من أن تمر سيارة عسكرية أو متطرفون إسرائيليون يرشقوننا بالرصاص . . وينتهي أمرنا . لهذا كان عرْق الرقبة ينبض بصوت مسموع . وبعد نصف ساعة توقفت سيارة تحملَ نُمرة منطقة الخليل، ركبناها، بعد أن اعتاد سائقو السيارات على التقاط المُفرج عنهم . . ونقلتنا السيارة الصغيرة، وكنّا ثلاثة، حتى دخلنا بلدة الظاهرية، وهناك نزلنا .

وأمام أحد البيوت، ظهر شاب سألَنا عن أمر وقوفنا ؟! فشرحنا له الأمر، فما كان منه إلاّ أن عانقنا بحرارة، حتى أصابتني الريبة من مبالغته في الترحاب بنا . . لكننا تبعناه إلى بيته، ودخلنا، فأوسع لنا الجلوس، في غرفة الصالون المتواضع، وذهب إلى داخل البيت، وعاد

مبتسماً مُرحبّاً بنا ، وبعد دقائق كان البيض المقلي وطبيخ العنب والجبنة البيضاء والخَبز وإبريق الشاي يُعبئ طاولة الوسط التي كانت أمامنا !

ورغم الجوع، لم نأكل، كنّا مشغولين بالوصول إلى بيوتنا، لكنه أصرّ على أن نأكل ونشرب الشاي ونُدخّن . . حتى يحضر لنا سيارة توصلنا إلى رام الله !

تَركَنا وحدنا في بيته . . فازداد خوف واحد منا، حتى كاد يهرب من البيت، لولا أننا تداركناه، وأقنعناه بأن هيئَة الرجل تطمئن . . وبالفعل حضر، بعد قليل، مع رجل سمين، لم يمشط شعره، كأنه أيقظه من نومه . . وسألَنا الرجل : أين ستذهبون؟ فقلنا : إلى رام الله، فقال : تدفعون ثلاثمئة شيكل، فوافقنا، وقلت له : سنعطيك المبلغ فور وصولنا إلى البيت، اطمئن .

وقبل أن نخرج من البيت، سألت صاحبه : ما اسمك؟ فضحك، وقال : فاعل خير، الله معكم !

ركبنا سيارة الأجرة، وبدأنا نتجاذب الحديث مع السائق، وكان اسمه مصطفى (أبا درويش)، وسألت أبا درويش : مَنْ ذاك الرجل الذي استضافنا في بيته؟ فقال : هذا ابن محمود أبو شرخ، وهو رجل طيّب، وله أخ في سجن عسقلان .

. . وصلنا إلى مدينة الخليل، وقبل أن نخرج منها، وفي وسط الشارع المؤدي إلى بلدة حلحول شمالاً، في منطقة «رأس الجورة» أوقفنا حاجز للجيش الإسرائيلي ، لنمضي ساعة كاملة في استجواب ممضّ، وتفتيش دقيق . وسمحوا لنا بمواصلة الطريق، ووصلنا إلى القدس !! لقد كانت مدينة أشباح، تجوبها دوريات عسكرية خائفة، وجنود

يقعقعون بأسلحتهم، كأنهم يوقظون الجنّ من حولهم، ليطردوا الرعب المحيط بهم . وعلى الساعة الثالثة صباحاً، وصلت إلى بيتي الواقع على مشارف رام الله، في منطقة ضاحية البريد، شمال القدس، وطلبت من أبي درويش والشابين المفرج عنهما معي، أن يتفضلّوا لكي أُعطي السائق أجرته، ولأقوم بواجب الضيافة!! لكن أبا درويش نظر إليّ، وقال: اذهب لعائلتك، حقّي وصلني، وسأحرص على إيصال الشباب كلاً إلى بيته في رام الله وبيتونيا، لا تقلق!

- ولكن يا أبا درويش . .

لا تكمل، قال أبو درويش، «فأنتم لستم وطنيين أكثر مني، وهذا واجبي» .

*

أُكتُبْ رسالتك الجديدةَ
للصغارْ
يا ليْلكَ الأطفال يا نُوّار
يا نَغَمَ الهزارْ
سيجيء فجرُ الانتصارْ
وستشهدون نهاركم
والليلُ، يوماً، لن يعودْ . .
فلتشهدوا

هذا زمانُ الانتفاضة
إنّه زمنُ الصعود .

*

ربما لن أعرف أبا درويش إن رأيته مرّة أخرى ، لكنني أراه وأرى ابن محمود أبو شرخ وآلاف الوجوه المعفرّة بالرمل والشمس ، في كل الوجوه التي تطالعني أنّى ذهبت ، من عكا إلى رفح ، ومن يافا إلى أريحا ، ومن البيوت التي تعجن حنّاءها ، الآن ، تحت شبابيك الجزّارين إلى الطرقات التي جعلت صدورها العارية سواتر تردّ الدخلاء الذين يتراجعون ، وسيتراجعون حتى يدخلوا في التيه القادم الطويل ، ما داموا مرهونين لعقدة الأغيار ، وحلّ المقاصل المثالي ! وما دام الطفل الفلسطيني مضطراً ليحمل أمتّه العربية الإسلامية على كتفيه . . ويمضي بها إلى فضاءات القرن الجديد .

(رام الله – 3/ 1/ 2001 م)

الانتفاضة

مرايا الدم والزلزال

(شهادة، بعد عامين على انتفاضة الأقصى)

رام الله 2002 م

هذه الشهادة

ثمة نقص جارح نعاني منه، نحن الفلسطينيين، يتعلّق بتأصيل تاريخنا النضالي والثقافي وحتى الاجتماعي وغيره، الأمر الذي يستحيل معه جمع كل أو أهم ما يتصّل بالفلسطينيين في ظل وجود «مناطق» فلسطينية متعددة؛ في فلسطين التاريخية (فلسطين 1948، الضفة الغربية، قطاع غزة، القدس) وفي الشتات العربي، وعلى مستوى الجاليات المتناثرة في العالم. فمثلاً، لم تتوفر معلومات شافية حول المجازر التي اُقترفت بحق شعبنا، ولا نعرف الكثير عن المعارك التي خاضها مجاهدونا وثورتنا في العديد من المواقع، ولم يتم جمع مُجمل الخسائر التي لحقتنا، وعلى كل الصعد، ونجد صعوبة بالغة في التعرّف على نتاجنا الثقافي والفكري والفني، ولم نحفظ الجغرافيا التي تم تبديدها، وإحلال جغرافيا مكانها، ليبقى الحق والحلم الفلسطينيان قائمين على أرضية راسخة.

لهذا، أرى من واجبي، بوصفي واحداً من الذين يستطيعون الكتابة، بمستوياتها الميدانية اليومية والإبداعية، أن أشارك شعبي الذي أعتزّ بالانتماء إليه، في جمع شظايا الحكايات والأحداث والاحصاءات، وأقوم بتسجيل ما أرى ضرورة تسجيله، اعتقاداً منّي أنّ كل فرد منّا مسؤول، من جانبه، عن سدّ الثغرة التي يتولاّها.. ولو أن كل مثقّف أو كاتب صرف جهداً إضافياً في ذلك، لوجدنا رواية فلسطينية ثرية بمعطياتها، تجعل الباحثين أكثر قدرة على دراستها وتصفيتها وتقديمها وتعميمها..

ولعل شهادتي هذه لا تسعى إلى أن تكون بحثاً أو تأريخاً أو شاحذاً بقدر ما أرغب في الإدلاء بشهادتي للتاريخ، بما أعرفه وأحسّه أو تجمّع لديّ، ليكون رؤية، ربما، تساهم في توضيح بعض الزوايا وإضاءة ما ينبغي إظهاره.

إن الكاتب منّا ليس حيادياً تجاه أرضه وشعبه وقضيته، ولا ينبغي له ذلك، تحت مسميات «النـزاهة والموضوعية»، رغم حيوية أن يكون النص- الشهادة موضوعية وغير مبالغ فيها، ولا تعتمد نظرية الانتقاء أو النفي أو غير ذلك.

وإن ما يدفع الواحد منّا للكتابة هو ذلك العامل الاحتلالي الفاعل، الذي يهدف إلى نسخ كل معانيات شعبنا وإخفائها وطمس معالم جريمته، بل يهدف ذلك العامل إلى تحويل ضحيته إلى مجرم، وما نقوم به، ربما، يحول دون ذلك.

وبالتأكيد، فإننا مطالبون، فيما نكتب، بإعادة المصطلحات إلى ظلالها الحقيقية، والمُسميّات إلى جذورها، لأن ثمة طغياناً مُريباً يسعى إلى استبدال المصطلح، أو ربطه بمعان جديدة، وإعطائه دلالات تروق له، وتسيء إلينا. وثمة أمر آخر مرتبطٌ بذلك، وهو قلب الحقائق وتقديمها كاملة التزوير الادّعاء والتعميم، حتى أن هناك منظومة كاملة واستراتيجيّات حاسمة تقف وراء خطاب نقيضنا - خصمنا، ولديها آليات هائلة وقادرة ونافذة وتعتمد نظريات التكرار والتبؤّر.

وغني عن القول إنه من دون تأصيل تاريخي فإننا لن نمتلك هويتنا، ولن نحفظ شخصيتنا، بكل مكوّناتها، ولن نشرف على المستقبل. غير أننا مطالبون، كذلك، بإعادة الأمور إلى نصابها، حتى لا نكون مبالغين،

أو محابين أو نجذف عكس التيار، بل أمناء على الحقيقة كاملة. ومعلنين بكل وضوح أنه لن تثنينا وجهة نظر نقيضنا فينا، ولا تغيّر في قناعاتنا شيئاً، كما لا يهمّنا إلا إبداء رأينا فيما يجري دون قصد الإساءة أو التشهير، بقدر ما يدفعنا حرصنا الأكيد وانتماؤنا لقضايانا، إلى عجم الظواهر، وسبر غور ما يحدث بهدف الترميم والإصلاح والمواجهة المتقدمة، حتى لا نكون من أولئك الذين يغطون الهاوية بستارة مبهرجة. إن الإشارة إلى هوامش الخطأ فينا لا تعني إغماض العين عن اجتراح المعجزات التي تدبّ صباح مساء هنا وهناك. غير أن هدف الكتابة ليس المديح، بقدر ما هو كشف للواقع المعيش وتجاوز له.

وقد تهدف هذه الشهادة إلى إثارة النقاش والجدل، خصوصاً فيما يتعلق بالتحليل السياسي الذي طرحته، وبفهمها لظاهرة الفساد أو الدعوة للإصلاح، وبالرغم من إدراكي للعلاقة الجدلية بين الإصلاح والتحرر والانعتاق، فإن الأولوية تكمن في أن يقوم المخلّص بقيادة حوارييه لصد الهمج. وبعد ذلك نستطيع أن نقول له، أو يقول لنا، سرّ الخلاص لأن الحرب لا تزال واجبة على الجميع.

ولعلنا بحاجة، من جديد، كشعب فلسطيني أقتلع من أرضه، وشُرّد معظمه، وأُستلبت حقوقه ومقدساته، وأُنتهكت حُرماته، وما زال ممنوعاً من ممارسة حقه في الحياة الكريمة والتطور الطبيعي، بحاجة ماسّة إلى العودة إلى المربع الأول من النقاش السياسي والفكري فيما يتعلق بمفهوم إسرائيل والسلام المطروح والحقوق المشروعة.

بمعنى أنه علينا أن ننطلق من مفهوم أن إسرائيل قامت لتؤدي دوراً وظيفياً، وأنها من فصيلة الاستيطان الإحلالي الذي قام على إلغاء الشعوب

الأصلية، من خلال القتل والإبادة والتهميش، وأنها ما زالت تتحالف مع شقيقاتها من الفصيلة ذاتها، والتي قامت على الأسس نفسها فيما سُمّي بالعالم الجديد. وبمعنى أن السلام المطروح هو سلام ممكن أو هدنة ممكنة أو مفروضة، وليس سلاماً عادلاً، وأن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني يجب ألا تخضع لوجهات نظر أو اجتهادات شخصية مُفرِّطة تحت عنوان الواقعية أو حرية التعبير. وبمعنى أنه ينبغي على شعبنا الفلسطيني حراسةُ حُلمه وحفظه من التبديل أو الإنقاص بحكم ضواغط القوة الخارجية، وينبغي عليه أن يحتضن ثوابته غير القابلة للتصرف، وأن يُبقي خطابه التربوي والإعلامي في خدمة الحلم والثوابت.

إن مهمة المثقف ودوره يختلفان عن دور ومهمة السياسي المحكوم بموازين القوّة، والممكن وغير الممكن، وتتحكم فيه اللحظة التاريخية. أما المثقف، فهو حارس الحُلم، والمؤكِّد الثوابت، بمعنى أنه الاستراتيجيّ، الذي لا يحكمه شيء. وبهذا المعنى، فإن السياسي الجيد هو الذي يقترب من المثقف. والمثقف ينبغي ألا يتبع السياسي أو يبرر له، وعليه، لا يحق للمثقف الحقيقي أن يسقط، بشكل ساذج أو مقصود، فيما يُسمى بالتفاوض أو التطبيع أو الحوار أو الإعلان عن قبول حلّ منقوص بدعوى الواقعية السياسية وما تمليه اللحظة التاريخية الراهنة. وهذا لا يمنع أن تكون للمثقف رؤيته السياسية أو انتماؤه الحرُّ غير الضيق، غير أن على المثقف الذي يساهم نتاجه وإبداعه في إنتاج وتكوين الفرد والمجتمع، عليه أن يدرك خطورة الهبوط إلى اليومي والآني على حساب النموذج الذي ينبغي العمل للوصول إليه. كما على المثقف أن يعمل داخل نسيج مجتمعه لتمتينه وصيانته، وخلق كوابح داخله تحول دون هرولة السياسي، بل تعمل على جذبه إلى ثوابته ومنطلقاته وروحه.

إن الانتفاضة فلسطينية الموقع، لكنها في جوهرها ثورة تُحسب لكل الأمّة العربية والإسلامية، وإنْ لم تُعلن ذلك ضمن أهدافها، وإن ما ستسفر عنه الانتفاضة سيؤثر بالضرورة والفعل على سائر أبناء الأمة، مثلما يؤثر فيها كل ما يدور في أروقة أمّتنا وساحاتها. وربما، أؤكد أن الانتفاضة هي إحدى نتوءات الثورة القادمة، ومبشّرة لها، وحافز يراكم عوامل غليانها وانفجارها. كما أن الانتفاضة الفلسطينية ثورة على مُجمل السياسات والأهداف التي تحاول ابتلاع العالم والسيطرة عليه والتحكّم فيه. أي أن الانتفاضة، كحركة شعب، وحركة احتجاج، تنـزع لمواجهة ما يُسمى «العولمة»، وإن لم تُفصح عن ذلك مباشرة أو تباشر إليه، لأن العولمة، في جوهرها وسلوكها، أيديولوجيا تسعى عبر آليات عسكرية واقتصادية وسياسية ومنظومات كاملة إلى السيطرة، وإخضاع شعوب العالم لصالح أصحاب العولمة. وبهذا المعنى لن يُسمح لثورة شعبية أن تنتصر، كما لا يحقّ لأمة ما أن تستجمع قواها وأمرها بيدها. ونعتقد أن أصحاب العولمة الذين تمثلهم الولايات المتحدة - الآن - لا يرعوون في ممارسة أقسى وأبشع أشكال الإرهاب ضد مَنْ تتهمهم بالإرهاب، في الوقت الذي تعمل فيه على تدمير النـزعات الاستقلالية، في الاقتصاد كما في السياسة، لدى الشعوب المقهورة والفقيرة، من أجل جعلها سوقاً ومرتعاً، وهذا ما يفسر مواقف الولايات المتحدة من قضيتنا وقضايا العرب والمسلمين، ويوضّح أسباب دعمها المطلق لوكيلتها في المنطقة إسرائيل، وحربها الضروس على شعبنا ومواقفه الحريصة على الاستقلال ونيل الحقوق. أي أن استباحة المدن الفلسطينية، وقتل الآلاف من المدنيين بالطائرات والأسلحة الثقيلة الأمريكية، وتخريب كل ما هو فلسطيني،

ما هو إلا حرب وسياسة أمريكيتان بأيد إسرائيلية، وما زالت هذه الأيدي ملوّثة بدم الصغار والأشجار والبيوتً.

والغريب أننا لا نردّ التُهم التي توجّهها لنا أمريكا وإسرائيل، بقدر ما نقع في ردّة الفعل، بمعنى ليس المطلوب منّا تبرئة ساحتنا من تُهم «الإرهاب» و«الأصولية» و«الفساد».. الخ، التي يكيلها لنا أعداؤنا، بل نحن بحاجة إلى إعادة الأمور إلى عواملها الأوّلية، فإذا أرادوا إلغاءنا فينبغي إلغاؤهم، وليس الوقوع في شرك لعبتهم القاتلة، دون أن ننسى إصلاح ذاتنا كشرط أساس لاستقلالنا وقوتنا.

وهنا، في هذه الشهادة، أحاول ألا أجعلها تقريراً صحافياً، أو انطباعاً وجدانياً قصير المدى، أو اجتراراً لما قيل، وسأحاول ألا تقع هذه الشهادة في عنكبوت الاطروحات التي وُجدت لتحقيق أهداف خارجية.

وبالرغم من أننا متورطون في اللحظة السياسية التي تحمل معها الأزمة الحضارية والفكرية والشخصية، فإننا مضطرون للاعتناء ببعض التفاصيل، وبسرد بعض ما حدث، لنعيد رؤية ما حصل، حتى لا يعاد إنتاجه على جلودنا، مرة أخرى. مع اعتقادنا أن الأساس هو التعمّق في هذه اللحظة التاريخية وتأصيلها، لأن الكثير من التفاصيل سيذهب أدراج النسيان.

وربما نجد أنفسنا مضطرين للمباشرة والوضوح، فالدم واضح، والمجنزرة مباشرة جداً، وتصريحات شارون وبوش واضحة ومباشرة إلى حدّ الموت، والفجيعة أمضّ من الصراخ. والألم والغضب أحدّ من برق القاذفات ووميض الرصاص الذي يفتت الجماجم والضلوع. والقهر والحاجة أقطع من جنازير الدبابات، وهنا لا بدّ من تصوير أم القتيل في جنازته، ودمعة أبيه العميقة.. المتضوّرة.

وحداثتنا، هنا، تختلف كلياً عن حداثة البعيدين عن وطنهم وشعبهم. لأن حداثتنا مليئة بـ«الدم، والحجارة، والعذاب»، وليست مُغرقة في تهويمات فردية مرضَيّة قبيحة، بل هي حداثة مغموسة، من أخمصها حتى رأسها، بأوجاع الواقع وكوابيس الضحايا والدموع القانية، بفنيّة ونضج، وهي حداثة مسؤولة ومنتمية إلى شعبها الذي يرى السفّاحَ المُستَخفَّ بالعالم يمشي عارياً؛ عورته بائنة، دون خجلٍ، وأصابعه تقطر من دمَاء أمهاتنا وصغارنا.

ولا يطيب لنا أن نعكس الحقيقة الساطعة، حتى نتبرّأ من المسؤولية، ونقول إن القاتل ليس أكثر من جنيّةٍ تعيد الأطفال الضالين في الغابة إلى عائلاتهم!

ولا مجال أمام أولئك التغريبيين «الحداثيين» إلاّ أن يثوبوا إلى رشدهم الوطني الإنساني، فلم يعد ينفعهم تشويه مَنْ تواجد في حمأة المجابهة أو عين النار، لأن أولئك، هناك، في حضن اللامبالاة المرُيح المربح، هذا إذا كان مريحاً أصلاً!

"راستي روستي"

من أوسلو إلى انفجار الانتفاضة
(2000/9/28 -1993/9/13)

توطئة

سأعود من حيث فشلنا، وأغادر من حيث نجحنا، لأن الفضائل التي أنجزناها، لا ينبغي أن نركن إليها، وتصبح مرجعيتنا في تبرير الفشل المرّ، ولأن هذه الفضائل ثانوية، وبالتالي تصبح أكثر خطورة من الرذائل الثانوية.

وإذا كان الإنسان يكتسب مكانة العدو الذي يصارعه، فإننا لم نكتسب المكانة تماماً، بسبب عوامل متعددة أهمها: أن اللحظة التاريخية وحدة واحدة، لا تتجزأ. أي لا يمكن أن نكون أقوياء في جانب ومنهارين وضعفاء في جانب آخر، فالديالكتيك يؤكد لبواباتنا الخمس «الحواس» أن الضعيف ضعيف والقوي قوي. والقوة أمر لا يتعلق بالحق أو بالأخلاق، إلا بمقدار ما تفرضه القوة من سطوة تجعل الباطل حقاً، والحق باطلاً. والعبرة مكتملة فيما فعله جنكيزخان عندما لبس طوقاً حديدياً نُقشت عليه كلمتان: «راستي روستي»، أي القوة هي الحق، غير أن القوة لا تلغي الحق، مهما طغت واستبدت.

ولا بأس في أن نبحث عن آليات تساعدنا على المواجهة، كأنْ أقول كما قالوا: «أحس أني المتوّج رغم أن الآخرين هم المنتصرون»، أو «سنضرب الجدران برؤوسنا، ثم نعود إلى ضربها، ستتحطم رؤوس عديدة، ولكن ذات يوم ستنهار الجدران» رغم إدراكنا، على رأي «ن. كازنتزاكي»: من الصعب أن تلعب مع الإله لعبة غير دموية.

لكن الخطأ الكامن وراء فشلنا واضح وينبغي مواجهته، لأن الخطأ الذي يُعترف به هو الخطأ الذي يمكن أن يتم إصلاحه. وعلينا أن نستيقظ قبل

أن توقظنا هاوية الموت، رغم أن هذه الهاوية هي الاسم الذي نعطيه لكل ما لا نستطيع عبوره، وعلينا أن نبحث عن الجواب الذي لن يأتي إلا حين نتوقف عن السؤال، ولأنه علينا أن نتبع نار الله لا أن نجمع الرماد، وشعارنا في ذلك: توّصل إلى ما لا تستطيع.

وطالما -الآن على الأقل- لا نستطيع أن نغيّر الواقع، فلنغيّر العيون التي ترى الواقع، شرط أن نكون واضحين صريحين وموضوعيين، ونرحّب بالمصيبة مهما كانت باهظة وثقيلة.. ولم تأت وحدها.

ومصيبتنا لها خصوصية نادرة، فبعضنا ادّعى رَؤية المولود قبل الولادة، بل قبل التحقق من الحَمل. وبعضنا رأى عظام الشياطين السوداء بيضاء مبتلّة وقابلة للامتصاص. وبعضنا محارب ناريّ مضرّج. وبعضنا ما زال يستنشق لهاث خصمه. وبعضنا ينطبق عليه قول الشاعر: كل ما يلمسه يتحوّل إلى ضوء، وكل ما يغادره يتحوّل إلى فحم؛ لا شك أنه ملتهب. وبعضنا يؤمن بإمكانية تحوّل الزنجي إلى جنجيّ. وبعضنا يرى أن غسيل الزنجي ليس إلا هدراً للصابون، رغم إيماننا بالإنسان مهما كان لونه ودينه ومولده وعمره وجنسه!

ومصيبتنا اكتملت، لكنها لم تنته بعد، ما يوحي بنقصانها! ولكنني أصرخ بعد كل ما حدث: ماذا بقي لتكتمل المصيبة؟

في حالتنا الفلسطينية يتداخل الوعي الكوميدي بالتراجيدي، أي إدراك المصيبة قبل وقوعها، ورؤية ولادتها كاملة، بكل غوليّتها وتوحشها.

وبالتالي فإن عادة التاريخ المزعجة أن يقوم دائماً بتكذيب توقعاتنا الصادقة، وهذا يعني أن أي تحليل للواقع وتوقّع له قد يكون خاطئاً، لماذا؟ لأن ثمة تفاعلات غير مرئية، ومصادفات بالضرورة، وظهور ما يُسمى العامل الأضعف، تقلب كل النتائج.

وثمة لحظات تاريخية تسود فيها الريح الرجعية، أي انتصار قوى الشر والظلم، لأن التاريخ للأشرار والأخيار معاً، وليست هناك فضيلة تاريخية لأيّ منهما، بالمعنى الكمّي للكلمة، وليس القيّمي. وتاريخنا الفلسطيني «مصيبتنا» الحديث معقّد، لأنه تاريخ صراع مفتوح على العالم، ولهذا فهو يتأرجح جيئة وذهاباً، صعوداً وهبوطاً، بسبب أي تحرك في هذا العالم. أي أن أية أزمة عادية في العالم تؤثر علينا بالضرورة، سلباً وإيجاباً. فمثلاً يعتبر ارتباط نقيضنا «إسرائيل» بالغرب المسيحي الإمبريالي القوي، وارتباطنا بمنظومات ضعيفة أو هشّة أمراً أساسياً في تشكيل ميزان القوى المعلق فوق بقعة صراعنا هنا في فلسطين. وكذلك بوصفنا نتاج تخلف القرن التاسع عشر العثماني، فيما كان نقيضنا يسابق الزمن في ارتباطه مع القوى العظمى الصاعدة، بمرونة، أي ارتباط العدو بمصادر القوة، وارتباطنا بقرون التخلف عكس نفسه أيضاً على مجريات الأمور بقوة، وأثّر في تحديد النتائج والأسباب.

مرة أخرى، سأعود إلى بداية متأخرة، من تاريخ صراعنا المرير، وأعني بداية مؤتمر مدريد واتفاقات أوسلو.. وما تبعهما، وصولا إلى الانتفاضة التي لمع دمها المعدني مع نهاية شهر أيلول العام 2000 م، وانتهاءً بعامين كاملين من تفجرها العبقري.

تـوالـد الـزلازل

هناك زلزالان وقعا أنتجا زلزالاً ثالثاً، الأولان هما: زلزال انهيار الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية، وما يعنيه ذلك دولياً، وزلزال الهجمة

الأطلسية على العراق أو ما يُسمى «حرب الخليج الثانية»، وما يعنيه ذلك عربياً، أما الزلزال الذي نتج فهو زلزال مدريد وأوسلو، وما يعنيه ذلك فلسطينياً، أي ذلك التحوّل العميق في رؤية إسرائيل، باعتبارها نقيضاً يجب نفيه وإلغاؤه ومن ثم شريكاً ينبغي مصالحته والتعاون معه.

هذه الزلازل الثلاثة زعزعت المسلّمات القديمة والمفاهيم القومية والأممية، مثلما زعزعت الأيديولوجيا الحمراء التي كانت من المسلّمات أيضاً. وكذلك قلبت المفاهيم رأساً على عقب، وهدمت المُتَحكِّم الذي كان مسيطراً في الوعي والأدبيات والخطابات الوطنية والقومية والأممية. إضافة إلى أن القضية الفلسطينية بدأت تفقد مركزيتها وحضورها السابق، ولم يبقَ لها إلا الإجماع الأخلاقي والديني والعروبي، والذي بدأ يتقلّص لاحقاً بفعل أخطاء فلسطينية متواصلة، وتغذية إقليمية وعربية لها.

الزلازل الثلاثة أصابت أكثر ما أصابت الأرضية الفلسطينية، السياسية، والفكرية، والثقافية، ما أثار العديد من الأسئلة العميقة والكبيرة، وبروز لاءات توتّرت فيما بينها وبين ما جرى (لاءات قومية، دينية، يسارية، إقليمية، شعبوية دولانية..)، ووقوع اهتزازات أخلاقية وفكرية وسياسية عميقة في العقل الفلسطيني، في ظل غياب تواصل في الوعي، ما أفقده توازنه، وبالتالي قاده إلى أزمة إدراك. وفي ظلّ سيطرة العقلية التجزيئّية والتعميمية والتجريبية التي أدت إلى الفشل والتيه، لأن الوعي لا ينطلق من ذاته عندما نواجه بأسئلة تفرض علينا تغيير ذاتنا، فعندها لن نجد أسس تغيير الذات. بل كان يجب الانطلاق من داخل الحدث، وليس من خارجه ومن ثم إلى داخله، حتى لا نقع في الميكانيكية والآلية أو في تطبيق النظريات الجاهزة، عداك عن غضاضة التجربة، والتباس

الأولويات وتداخلها، وتداخل الأجهزة والمصالح والصلاحيات وغياب التخطيط وسيطرة تلك العقلية، ما أدى إلى إغراق الوعي ونفيه ومحاصرته. فالمؤسسة التي لا تخلق تُدمّر، وبالتأكيد لا يكفي الاحتجاج السلبي، أو طرح ما هو بعيد عن الزمان والمكان وما يدور حولنا.

ما يكفي هو وجود استراتيجية - دائمة - شاملة، حديثة، حريصة، متجددة، لمواجهة الاستراتيجية المقابلة النقيضة واستيعابها وتجاوزها.

وربما كان ينبغي أن تتم معاركنا على أرضية عروبية إسلامية، وليس على شكل أو صيغة إقليمية فلسطينوية، أي التركيز على الأنا والذات الفلسطينية باعتبارها مهددة بالإلغاء والاستلاب والتغريب وليست انتصاراً للفكرة الفلسطينية. كما كان ينبغي البحث عن لغة قادرة على أخذ جماع الانقلاب الجديد، والمفاهيم الوليدة، والأفكار الساخنة، الخارجة من فرن الأحداث الكبرى.

تم اتفاق أوسلو، وتمت المصافحة - التي أوهمت العالم أن الصراع قد انتهى- على منصّة أمام البيت الأبيض في العاصمة الأمريكية واشنطن، بحضور ياسر عرفات واسحق رابين وشمعون بيرس، وبيل كلنتون ومحمود عباس أبو مازن، ووزيري خارجية أمريكا وروسيا يوم 13/ 9/ 1993. واتفق الجميع - على ما يبدو - على طيّ صفحة الماضي الدامية، وفتح صفحات من النماء والإخاء. وبعد عشرة شهور وصل الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات إلى أرض فلسطين، عبر معبر رفح، وقبّل أرض غزة الطاهرة، وبدأت مرحلة السلطة الوطنية الفلسطينية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن عودة بعض الأهل إلى أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة، دون القدس، هي عودة ناقصة محمولة على اتفاقية وليست

على تحرير قتالي، ثم إنها عودة صادمة لأن الوطن المجزوء المرهق والمهدوم الذي عادوا إليه لم يكن مثالياً كاملاً كما كان مُتخيّلاً. لهذا اغترب بعضهم، واندفع بعضهم للإفادة الشخصية من هذه الوقعة، فيما تماهى معظمهم ونبتوا في المكان كأية شجرة تعود إلى ثراها.

قراءتان لـ "أوسلو"

لقد وافقت القيادة الفلسطينية على أوسلو، لأنها اضطرت إلى ذلك، بسبب زلزالي انهيار الاتحاد السوفييتي وحرب الخليج الثانية، واختلال موازين القوى الدولية وتفرّد الولايات المتحدة في العالم، وهذا ما يفسر قول البعض إن «أوسلو» كانت ممراً إجبارياً. ووافقت القيادة على أوسلو لأنها كانت قد مهّدت للسلطة الوطنية من العام 1974 من خلال النقاط العشر، ومن خلال هبوط الرسم البياني للاءات الفلسطينية، عبر المجالس الوطنية الفلسطينية، انسجاماً مباشراً أو غير مباشر، مع هبوط الرسم البياني للاءات العربية، من خلال القمم العربية. ووافقت القيادة الفلسطينية على أوسلو لأنها افتقدت الحاضنة العربية ومساندة الأحزاب وحركات التحرر العربية بسبب ضعفها وانحسار دورها، وبسبب سياسات منظمة التحرير واختلافها مع معظم تلك الأحزاب والقوى. ووافقت القيادة على أوسلو لأنها اعتقدت أن وضع قدمها على أرض غزة أو أريحا سيفرض أمراً واقعاً، تكتمل معه إمكانية تحقيق وإقامة الدولة الفلسطينية، عبر مجموعة كبيرة من الفروض والهوامش، عدا عن أن م. ت. ف، اعتقدت أن قيام سلطة وطنية على أرض فلسطينية سيتيح

المجال أمام الفلسطينيين لإقامة أول كيان فلسطيني مستقل على أرض فلسطينية محررة، وسيتبع ذلك إمكانية إتاحة تأصيل جيل منتم ومُعدّ لمواصلة الحضور الفلسطيني على الأرض الفلسسطينية، ما يعني أن الكيان الفلسطيني الجديد سيوقف التوسع الصهيوني وسيعمل على أن ينحسر، إذ أن المشروع الصهيوني يعتقد أن حدود إسرائيل تصل حيث تصل بساطير جنودها، ووافقت القيادة الفلسطينية على أوسلو لأنها اعتقدت بأنها لن تخسر شيئاً على اعتبار أن القيادة لن تمنح إسرائيل التوقيع الذهبي النهائي لإنهاء الصراع، بل ستأخذ القيادة من إسرائيل أرضاً -بصرف النظر عن حجمها- وستقيم عليها سلطة وطنية، ولن تغلق أو تُنهي الصراع مع الدولة العبرية، بقدر ما سيظلّ الصراع مفتوحاً على كل الاحتمالات!! وبدل أن تقوم المنظمة بمقارعة إسرائيل عن بُعد، وهي في تونس، ستتمكن من مقارعتها مباشرةً، ،وجهاً لوجه، وستكون القيادة بين أبناء شعبها، وستتخلص القيادة من الضغوط التي تمارسها الدول المُضيفة لها.. كضريبة تدفعها القيادة للدول العربية التي تحطّ رحالها فيها.. بمعنى ستتمكن القيادة، بالفعل، من أن يكون قرارها الوطني مستقلاً تماماً!

أما الدولة العبرية، فقد وافقت على أوسلو، لأنها تريد أن تكون الظاهرة الفلسطينية (الثورة والمقاومة والمنظمة) على الطاولة الإسرائيلية، وتحت المجهر الإسرائيلي، وتحت السيطرة، فعندها يمكن التحكم بها والنيل منها. ووافقت إسرائيل على أوسلو لأنها ستربح أكثر مما ستخسر.. كيف؟

1. ستتخلص إسرائيل من عبء ثلاثة ملايين فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة، وسيكون هذا العبء على كاهل السلطة الفلسطينية التي ستتولى التعليم والصحة والشؤون الاجتماعية.. الخ.

2. ستقوم السلطة الفلسطينية بالسيطرة الأمنية على الفلسطينيين وسيتم ضبط الفلسطينيين، واعتقالهم، بأيد فلسطينية نيابةً عن إسرائيل. (هذا ما كانت تطمح إليه إسرائيل وتطالب به على الأقل).

3. ستبقى إسرائيل مُسيطرةً على المعابر والحدود والمياه والأجواء والقدس وعلى الأراضي خارج المدن، أي على معظم الأرض الفلسطينية، ما سيتيح لها مواصلة الاستيطان، وهذا ما تم بالفعل، إذ تضاعف الاستيطان مرتين بعد أوسلو، عداك أن أوسلو لا تلزم إسرائيل بعودة لاجئ واحد.

4. ستتمكن إسرائيل من التدخل في إيقاف الخطاب الإعلامي والثقافي والفكري الفلسطيني الداعي إلى محاربة إسرائيل، بل وإيجاد خطاب جديد متصالح، ويدعو إلى التطبيع معها (وهذا ما تم معظمه من خلال إلغاء فقرات في الميثاق الوطني الفلسطيني، وفرض صيغ جغرافية وفكرية في المنهاج المدرسي الفلسطيني، والحدّ من الهياج الإعلامي الرسمي، على الأقل، عداك عن أن الباب انفتح أمام المؤسسات الحكومية وغير الحكومية للتطبيع مع مؤسسات إسرائيلية مماثلة..).

5. ستتمكن إسرائيل من الاتفاق مع بعض الفلسطينيين على تجميع الشباب الفلسطيني والكوادر التي ناضلت ضد إسرائيل قبل أوسلو، من ترتيب أوضاعهم وتحسينها وضبطهم واستيعابهم في عدد من الأجهزة الأمنية، حتى يكون هؤلاء الشباب والكوادر عاملاً يحول دون مقاتلة إسرائيل، بعد أن كانوا هم أنفسهم عناصر مكافحتها.

6. إضافة إلى عدد من الاتفاقات التي تتيح للدولة العبرية التدخل في كثير من الشؤون الداخلية الفلسطينية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عدا أن إسرائيل احتلت الكثير من الهوامش غير المعبأة فلسطينياً. والأهم من ذلك أنه لا توجد قوة دفع خارجية، أو أية ضمانة دولية تُلزم إسرائيل بتنفيذ بنود الاتفاقات الموقعة. وهذا ما وقع بالفعل، علاوة على أن أبواب العالم العربي والإسلامي ستنفتح معظمها على مصاريعها لإسرائيل، على اعتبار أن أصحاب الشأن (الفلسطينيين) قد تصالحوا مع إسرائيل! وبالتالي لا حرج على أية دولة عربية أو إسلامية أن توقّع اتفاقية سلام مع إسرائيل.

7. تستطيع إسرائيل أن تتهرب وتماطل في تطبيق الكثير من بنود الاتفاقات لأنها، تعرف جيداً أن صياغة الاتفاقات كانت قائمة على صيغة الغموض الإيجابي. أي أن لكل جملة عدداً من التفسيرات والقراءات، وليست ذات دلالة قطعية. وبالتالي فإن القوي يستطيع أن يفرض قراءته ومفهومه للنص، علماً أن إسرائيل مدعومة تماماً من راعي السلام الأمريكي والمنحاز لها تماماً.

باختصار، أراد الفلسطينيون اتفاقات أوسلو مع الأرض، وأراد الإسرائيليون اتفاقات أوسلو مع الأرض أيضاً.
وإسرائيل التي تمت صناعتها وإقامتها، هنا في فلسطين، وُجدت أصلاً لتأدية دور وظيفيّ للقوى الإمبريالية الكبرى في المنطقة، وبالتحديد الولايات المتحدة، لهذا من المستحيل أن تستجيب هذه الدولة لمعاني السلام وروح العدل. ولو أن إسرائيل قامت لحلّ مشكلة الإسكان لليهود لأمكنها التعايش مع محيطها، ولكان بالإمكان الاعتراف الحُرّ بها والتعاون معها. ثم إن اليمين الإسرائيلي هو الأكثر حضوراً ونفاذاً في إسرائيل، وهذا ينسجم مع طبيعتها ودورها وفكرها، بل إن اليمين ازداد ونما وانتشر أكثر في إسرائيل مع بدء انهيار طبقة (الحوساليم)، وهي الطبقة البيضاء الأوروبية الاشتراكية الكيبوتسية، ومع بدء تصاعد الشرقي الفقير المتدين القادم من مدن التطوير والمستوطنات اليهودية. وربما يكون واضحاً أن اليمين - في العقد الأخير- بدأ يصعد نجمه في كثير من دول العالم، معتمداً على الظرف الاجتماعي والاقتصادي، والتطرف الديني (أمريكا وأوروبا على وجه الخصوص).

ثم إن اليمين الإسرائيلي بالذات متجذر في السياسة الإسرائيلية منذ عشرينيات القرن الماضي، وهو يمين مكشوف الوجه لا يوارب، ولا يحاول تجميل صورة إسرائيل الديمقراطية الغربية إذا كان ذلك على حساب الفاتورة السياسية والأمنية. وإسرائيل - وبسبب الدعم الأمريكي الغربي المطلق لها- ترى في نفسها دولة «عظمى»، وتتصرف بغطرسة وخيلاء وصلف، ليس مع الفلسطينيين فحسب، بل ومع العالم أجمع،

وهذا في جزء منه، يعود إلى التربية اليهودية القائمة على العنصرية ورؤية «الغوييم» الفوقية. ولهذه الأسباب كلها فإن إسرائيل مستعدة لدفع الثمن الأمني والديمقراطي والأخلاقي من أجل الاحتفاظ بالأرض، وبمهمتها الوظيفية المتقدمة. عدا أن إسرائيل دولة ذات مؤسسات ونظام وقوة اقتصادية وعسكرية هائلة. أما السلطة الوطنية الفلسطينية، ومنذ العام 1994 حتى انفجار الانتفاضة العــــام 2000م، فإنها ظلت سلطة ضعيفة اقتصادياً وعسكرياً، ولم تستطع أن تؤصّل مؤسسات مدنية وأمنية واقتصادية متماسكة وراسخة، بقدر ما انحرفت بعض تلك المؤسسات عن مهمتها، وتنازعت فيما بينها، وتراكمت التجاوزات والأخطاء، وغاب كثيراً عامل الحسم والمحاسبة ومبدأ الثواب والعقاب. وللتاريخ أقول إن ثمة أسباباً موضوعية داخلية، وأسباباً خارجية مؤثرة، عملت جميعها على إيصال السلطة الوطنية إلى ما وصلت إليه من وهن وتفكك وضعف، إضافة إلى سيطرة العقلية التجريبية والتعميمية والتجزيئية، والإبقاء على صيغ الحكم التقليدية، الأمر الذي جعل الشارع الفلسطيني يضيق ذرعاً بمخاتلة إسرائيل وبممارساتها الاستيطانية والقمعية وضربها عرض الحائط بكل الاتفاقات، كما جعل الشارع الفلسطيني يضيق ذرعاً، أيضاً، بحالة الفساد التي بدأت تستشري في الجسم الفلسطيني، لهذا لم يكن هناك من مناص إلا أن ينفجر هذا الشارع، فكانت «زيارة» اقتحام شارون الحرم القدسي الشريف، الشرارة التي أشعلت النار في الهشيم المتراكم، وكانت الانتفاضة الثانية أو انتفاضة الأقصى أو الاستقلال، أو ما شئت تسميتها.

ملاحظة

لقد انطلقت شرارة الانتفاضة الكبـــرى العام 1987 من قطاع غزة، لأنّ غزة، وقتها، كانت عنوان الحرمان والقمع والتنكيل الاحتلالي. وانطلقـت شرارة هـــذه الانتفاضة العـــام 2000 من مدينة القدس، لأنّ القدس كانت أهم عناوين الاستلاب الإسرائيلي وشهوة الاحتلال في هضمها وتهويدها.

انتفاضة مختلفة

من الانفجار إلى الاجتياح
(28/ 9/ 2000– 28/ 3/ 2002)

لم نتخلَ، نحن الفلسطينيين، عن أساليب الحرب واجتراح المعجزات، وإظهار الجسارة وممارسة الشجاعة الفذّة، وما زلنا نستعمل الأساليب نفسها، الفردية، الجماعية، الإيمان العميق بالنهاية، ولكن دون العمل الكافي من أجل ذلك!

دخلنا انتفاضة جديدة، بعد عشرات الانتفاضات، كان أبرزها انتفاضة 1987- 1992، وانتفاضة الأقصى الأولى 1996، وهذه الانتفاضة التي ميّزها عما قبلها من انتفاضات عدة ميزات: أولاها وجود سلطة وطنية، وثانيتها توّفر السلاح الناري في أيدي المنتفضين، وثالثتها حدوث زلزال جديد هو الهجوم على الأبراج في نيويورك والبنتاغون في واشنطن بتاريخ 11/ 9/ 2001، ما سيسمح لإسرائيل بتوظيف هذا الزلزال لصالحها بشكل حاسم.

وجود سلطة وطنية على الأرض الفلسطينية يعني وجود أراض تحت السيطرة الفلسطينية الكاملة، ووجود اتفاقات تربط بين هذه السّلطة ودولة إسرائيل، وتوفّر السلاح الخفيف في أيدي قوات الأمن والقوى والفصائل والجمهور الفلسطيني.

دخلنا الانتفاضة الحالية التي كانت الرد الرسمي والشعبي على خداع أوسلو الذي تحوّل إلى تكريس للاستيطان والاحتلال مقابل عدد من رموز السيادة الفارغة، وبذلك أعادت هذه الانتفاضة الصراع إلىَ أصوله الأولى (حرب وجود، حرب كيانات) إلى حد كبير. وبمعنى آخر دخلت إسرائيل حربها ضد الانتفاضة لتحقيق عدة أهداف، أهمها فرض القراءة الإسرائيلية لاتفاقات أوسلو، وإبقاء الأمر على ما هو عليه، ولتصميم أو تشذيب الشعب الفلسطيني حسب المواصفات الإسرائيلية.

غير أننا دخلنا هذه الانتفاضة ولم نستفد من تجاربنا في الانتفاضات السابقة، ولم نستعد للمواجهة، في حين أن الإسرائيليين دخلوا حربهم ضدها وقد أفادوا من أخطائهم إبان الانتفاضتين الأخيرتين 1987 و1996. عدا أن إسرائيل العام 2000 كانت قد راقبت ودرست وأثّرت فـي الحياة الفلسطينية في الضفة والقطاع، في الوقت الذي لم نرقَ فيه إلى سبر غور الإسرائيليين والدخول إلى أحشائهم، ومعرفة نقاط قوتهم وضعفهم.

كيف دخلوا .. ودخلنا

دخل الفلسطينيون الانتفاضة بصورة أقرب إلى الارتجال منها للتخطيط، وكان مقتل الانتفاضة يتمثل في عدة أمور، أهمها: عسكرة الانتفاضة، ما أدى إلى عدم تحييد السلاح الإسرائيلي الثقيل وما جعل المشهد كأنه حرب بين طرفين، والأمر الثاني غياب السلطة، بمعنى أن السلطة هي احتكار ممارسة القوة، وهذا لم يتم، بل العكس تماماً، إذ إن السلطة تركت الحبل على الغارب لكل مجتهد أو عابث، وتركت المجال لأكثر من أجندة تمضي في طريقها، ما جعل هذه الأجندات تتعاكس فيما بينها، إضافة إلى الاستجابات الشعبوية ذات الطابع الانتخابي التي كان لها مردود سلبي، ولم ترتبط بالقراءات الصحيحة للظروف المحيطة. وهنا لا نبرّئ الفصائل التي لم تكن على مستوى الضبط المطلوب، واستشعار المصلحة العليا، بل لم تفتح الحوار المطلوب مع السلطة لفرض صيغ عمل جماعية. كذلك فإن السُلطة لم تتخذ موقفاً واضحاً في كيفية التعامل مع

الجماهير، ولم تعمل على مصارحتها أو رفضها أو تبنّيها، كما أن السلطة لم تنسق مع الجماهير خصوصاً في المواقف السياسية، وحاولت السلطة أن تقدم نفسها للعالم كسلطة مسؤولة، وحاولت، أيضاً، أن تقدم نفسها للجماهير وكأنها تقودها، وهذا وضع لا يمكن الاستمرار فيه ومعه إلى الأمام، لهذا تغير سقف الانتفاضة بسبب سوء المرجعية الأولى وبسبب تقديم السلطة لنماذج رديئة على مستوى التفاوض والإدارة والفساد، عدا أن الجماهير، ونتيجة لوجود السلطة قد تغيّرت مفاهيمها في المشاركة في الانتفاضة من حيث عدد وكمية وشكل المشاركة. إضافة إلى كل ذلك، فقد دخل الفلسطينيون الانتفاضة والموقف العربي مفكك ومُستلب وضعيف، وفي ظل وجود أطماع إقليمية مجاورة، وفي ظل خذلان دولي حقيقي وبالذات بعد أحداث11/ 9/ 2001، وفي ظل نقص الإمكانات، والاستغلال غير الموفق لأنواع مؤثرة من المقاومة، عداك عن تزوير الحقائق للجماهير من خلال تصريحات نارية لكثير من المسؤولين تبيّن كذبها وزعيقها وهدفها المعاكس وعدم توّفر استراتيجية إعلامية بقدر ما توفرت نتوءات وجعجعات، وعدم توفر خطط أو حتى نيّة لمأسسة الانتفاضة وتطويرها. لقد كنا مجّانيين في موقفنا وخطابنا وتنازلاتنا التكتيكية، وتجرؤ الكثير من المسؤولين والشخصيات على الثوابت والمفاهيم الأساسية المشروعة.

أما الإسرائيليون فقد دخلوا الانتفاضة بعد أن وجدوا ثغرة أدخلوا من خلالها سلاحهم الثقيل سريعاً، وبلا رحمة، وبدأوا حرباً إعلامية قوية، وسريعة، ومنسجمة ومتواصلة، ومارسوا كل أشكال القمع ووسائل العنف الإجرامية والمحرّمة دولياً، في ظل دعم وتبرير أمريكي مطلق

لهم، وصمت أوروبي وعالمي، وعدم تحرّش إقليمي بإسرائيل، ما جعلها مرتاحة، وتستمر في جرائمها دون رادع.
وربما كانت إسرائيل مُستغلة إلى أبعد الحدود هذه الحرب التي تشنها، فقامت بتدمير كل شيء، دون استثناء، في الحياة الفلسطينية، بهدف إضعاف وتركيع وتلقين الفلسطينيين، الذين وجدوا أنفسهم، أخيراً، أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إما الانفجار في وجه الاحتلال ورفض إملاءاته، وأما الاستسلام. ومن الطبيعي أنهم لم يستسلموا.
هنالك على ما يبدو قرار، غير مكتوب وغير معلن، أمريكي غربي إسرائيلي، مفاده عدم السماح للشعب الفلسطيني المنتفض بأن ينجح في تحقيق أهداف ثورته وانتفاضته، بوساطة العنف، لأسباب سياسية وعقدية. بمعنى أنه إذا انتصرت الانتفاضة فهذه سابقة ستتكرر في غير مكان، في العالم العربي أو الإسلامي، وستنتقل أشكال المقاومة إلى خارج فلسطين وتصبح نموذجاً يحتذيه الشبان والمقاومون، وبالذات شكل العمليات الفدائية التفجيرية، ما يفسر حرب أمريكا وإسرائيل لهذا الشكل على وجه الخصوص. ثم ينبغي أن تكون الأنظمة القائمة فيما يُسمى الشرق الأوسط، أنظمة مطيعة ومتعاونة مع أمريكا وحليفتها إسرائيل، وليست أنظمة ثورية تقول: «لا» في وجه سيّدة العالم وابنتها المدللة إسرائيل.
وبالتأكيد، فإن ما يولّد العمليات التفجيرية، ويمهّد لردود الفعل الفلسطينية العنيفة، هو مجمل إجراءات إسرائيل القمعية الدموية، وتفننها في إذلال الشعب الفلسطيني وتعذيبه وتجويعه ومحاصرته. أي أن إسرائيل ومعها أمريكا وصمت العالم هو المسؤول عن كل قطرة دم

تسقط، هنا، في فلسطين التاريخية، وأن كل هذا الموت لن يمحي من ذاكرة الفلسطينيين حقوقهم التي مهروها بكل هذا الدم والدمع والفجائع.
خلال الثمانية عشر شهراً الأولى من الانتفاضة - وقبل الاجتياح الكامل والاستباحة والاحتلال الذي عاد مكتملا للأراضي الفلسطينية - قمت بتسجيل هذه الملاحظات العامة على ما جرى:

1. شجون اليوتوبيا

لعل أسباب انفجار الانتفاضة الأم الكبرى، وهذه الانتفاضة، هي واحدة، تتركز وتعود إلى الاحتلال، بكل ما يعنيه، من استلاب ومهانة وقهر وإذلال، يولّد رغبة محمومة، هي ما يشكل القرار الحاسم الذي يسعى للتخلّص من كل ذلك، لتهيئة الأيام القادمة، لتكون أكثر قبولاً ولطفاً وكرامة. لكن الانتفاضة الكبيرة تلك، ولولاها، لما وجدت هذه الانتفاضة طريقاً ممهداً لتمضي فيه. بمعنى أن تلك الانتفاضة عملت على تسوية أول درب للشعب الفلسطيني ليمضي إلى مستقبله، بعد أن عملت الأعمال الفدائية منذ انطلاق الثورة حتى حصار بيروت على تهشيم وتحطيم الصخور الكأداء الضخمة التي كانت تسدّ الطريق أمام شعبنا.
وبمعنى أن تلك الانتفاضة قد أسست لشكل نضالي شعبي «سلمي» يتوفر لنا، لتوظيفه، كلّما دعت الحاجة لذلك، خصوصاً بعد أن تراكمت الأسباب الداعية لذلك.
وثمة سبب ساهم في اشتعال هذه الانتفاضة وتلك، ألا وهو الاحتقان المكتوم، الذي يتفلّت، هنا وهنا، ويتجلّى في النكات الساخرة، أو

الاحتجاجات السياسية المحصورة، أو الخطابات الموسمية الخجولة، أو يتداح في الجلسات الخاصة، والذي يتمحور حول هامش الخطأ فينا.
وبالرغم من أنه هامش مسكوت عنه، إجمالاً، ولم يصل إلى حدّ خلق صوت معارض يحمله بكيفية يكفلها القانون أو الدستور، فإنه كلام حق، يتدحرج.. ويكبر، ويختلط بالمبالغة حيناً، ويستغله الاحتلال حيناً آخر، إلا أنه موجود، ويشكّل سبباً هامشياً للاحتجاج، وإعلاء صوت الغضب.
فالانتفاضة تلك أنضجتها حالة القمع المتواصلة، وحالة الوعي التي تعالت من مصدرين كبيرين، هما المعتقلات والجامعات المحلية، في حين أن الانتفاضة الحالية أنضجتها حالة الإحباط والغضب وممارسات الدولة العبرية التي لا تطاق.
وقد كشفت لنا هذه الانتفاضة، وبشكل صريح واضح، أن عقليتنا عذرية تماماً، وأننا لم نستخلص العبر من الانتفاضة الكبيرة، وأن الأخطاء تتكرر، وتُبهظنا بشكل مجانيّ، كأن الرعاة لم يروا الذئب إلا اليوم.
ومما يعمّق الأسى والأسف، أيضاً، أن هذه الانتفاضة لديها من الأدوات، ما لم يتوفر لتلك الانتفاضة، وبالرغم من كل هذا وذاك، فإننا لم نوظّف هذه الأدوات كما يجب!! ومثالنا على ذلك وجود التقنيات المتطورة في عالم الإعلام والاتصالات، من فضائيات وبريد إلكتروني، وانتهاء بتكنولوجيا الأسلحة الدقيقة.
وبالرغم من عدم وجود وسيلة إعلامية سمعية أو مرئية فلسطينية في سنوات الانتفاضة تلك، وبالرغم من فرض منع التجول لمدة وصلت إلى ثلاثة أشهر متواصلة، على مدن وقرى كاملة، فإن الناس لم يُصابوا